قذارة النرجس

عزيز شراج

قذارة النرجس

رواية

عنوان الكتاب	**قذارة النرجس**
المؤلف	**عزيز شراج**
التدقيق اللغوي	**الأستاذ جاسر عبيد**
النوع	رواية
عدد الصفحات:	220
الطبعة الأولى :	2021
ر.د.م.ك :	978-9938-9977-1-2

الناشر
دار المقدمة
1 نهج الأديب محمود الشبعان حميم ـ المرناقية ـ منوبة
الهاتف : 22990183 - 79408851
Almokadima.edition@gmail.com

«تولد السعادة من حب الغير، ويولد الشقاء من حب الذات»

أنا رجل مهم في دولة غير مهمة، دولة النرجس موجودة في كل بقاع الأرض، موجودة في كل القلوب. يحكمها حكام من نوع خاص، حكام من قبيلة النرجس، لا يرون إلا أنفسهم. تزاوجوا، تكاثروا حتى أصبحوا أغلب سكان الأرض، يُقال إنهم من نسل قابيل.

أول مؤسس لقبيلة آل نرجس. قتل أخاه حبا في ذاته، فمات بموت أخيه حب الآخر. ليعيش الأنا بيننا. يكبر، يتكاثر... حتى صرنا كلنا قابيل، ماهرون في القتل، في صناعة الدمار. ندمّر الحب لتحيا الكراهية، ندمّر الألفة لتحيا الفرقة، ندمر الصداقة لتحيا العداوة، ندمّر الوفاء لتحيا الخيانة، ندمّر وندمّر... كلّ يوم تموت بداخلنا أشياء كثيرة، وعندما نستيقظ قد نجد أننا مُتنا منذ زمن طويل، وأنّ ما يعيش بِداخلنا لا يعدو أن يكون جسماً مليئاً بالقذارة، الكذب، الأنا، الخيانة والغدر...

الفصل 1

الخيانـة

«انتشرت خيانة العشق بين البشر
حتى أصابت حبيبتي العدوى فخانت»

قذارة في قذارة، أستطيع أن أشمّ رائحتها على بعد أمتار، لكن المشكلة أنها تنبعث من داخل أعماقي، من أعماق أعماق ذاتي المتعفنة، التي لم يستطع أن يُواري تعفّنها كل ما تحتمي بداخله، من ملابس مستوردة وعطور باريسية...

يستطيع كل من حولي أن يشموا رائحة عِطري النفاذة، الغالية، التي أحرص دائما على أن تُشكل هي والماركات العالمية من الملابس واجهتي الخارجية. تباً، من حولي يشمون ما لا أشم، غدوت أتنفس القذارة.

لماذا؟

متى استيقظت هذه الحاسة اللعينة؟

خمسون عاما مرت من عمري وأنا في أمان، أو هكذا تخيلت. لماذا اليوم بالذات؟ أي لعنة أصابتني؟ كان يمكن أن أتجاوز محنتي أو بالأحرى أن أتعايش معها كما يتعايش معها جمع غفير ممن أعرفهم، وأولهم رئيسي في العمل، إلى أين أنا ذاهب؟ ماذا سأفعل؟ آلاف الأسئلة تطحن دماغي، تستفز ذاكرتي، تجعلها تُخرج كل ما بداخلها. كأنه قيء مليء بالدم والقيح المُلوث. تخيّل. أيّ رائحة يمكن أن تكون لهذا المزيج المقرف؟

أيّ حياة كنت أعيشها؟ أ فعلا توهمت أنني بلغت المجد والسعادة؟ أ صدّقت؟

يا لي من أحمق، غبيّ كنت أنا ومازلت. المشكلة هل سأظلّ كذلك؟

قوة نجاحي كانت تكمن في غبائي. إنه زمن الأغبياء بلا منازع، غباء خاص.. غباء فريد ممزوج بالأنانية، غباء غير معروف، لا يشبه البتة ما كان متعارفا عليه قديما من غباء. يجعلك في البداية تتغابى حيث يُحتّم عليك أن تَقلب المفاهيم، أن تُعطيها تفسيرا مُخالفا لحقيقتها.

أن تجعل الآخرين يصدقون ذلك، بل يجب أنت أن تصدق ذلك. في الأخير تكتشف. أنت من كنت تصنع الغباء وتروّج له، أنك من أكبر الأغبياء صرت. غباء مُشوّه.

آلاف الأصوات تهتف بداخلي. أرجوك لا تستيقظ، دعك غبيا نائما إن لم تستطع، فتظاهر بذلك. لنعش بسلام.

ثلاث ليالٍ، وأنا أُحاول ذلك عبثا، اعتبرت الأمر عابرا، لكن كلما حاولت أن أنسى أو أتناسى، سيطرت الرائحة اللعينة على كل حواسي. أفقدتني الرغبة في الحياة، في النوم، في الأكل، في المتعة. تقتحم عليَ خلواتي، نومي أصبح كلّه كوابيس.

كلمات التقرير اللعين تُلاحقني، تُشكل سمفونية تُطالِعُني في كل مكان. صور الخيانة، الشريط المسجّل الموثّق، بشكل لا يدع مجالا للشك. هذه المرة أصبح كابوسا، فيلما مرعباً، يُنغّص عليَ صحوي ومنامي.

إنها تخونني. مع من؟ مع رئيسي في العمل. قفزت إلى ذهني ذكرى أختي فتحية وهي تقتحم هذا المكتب منذ خمس سنوات خلت. لتُحذّرني من خيانة ألفة، لكنني صَدَدتُها، طردتها اعتبرت كل ما قالته افتراءً وكذبا.

لا يمكن لألفة أن تخون.

- صالح، أريدك في موضوع مهم لا يقبل التأجيل ولا تدع أحدا يدخل علينا.

- خير إن شاء الله فتحية حيرتني.

- ألفة تخون فيك.

ضحكت مِلئ شدقي وأسمعتها ما لم تسمعه مني من قبل. بل أخرجتها من حياتي.

- كُفي غيرة. ألا تعرفي أفضال ألفة عليك، أ لِأنها رفضت إعطاءك ما تريدينه من مال تطعننيها هكذا في شرفها.

- إذن هكذا مهّدت الأفعى للموضوع. اسمع يا صالح إذن: صحيح أنها تعطيني، وصحيح أنني مُحتاجة. لكنها تُعطيني من مالك أنت وليس من مالها هي الذي ورثته من أبيها وأنت تعرف. أنت من جعلت هذه الأعطية ناشز لا لشيء إلا لتُذلني بها زوجتك، لتنتقم مني لرفضي لها السابق في أن تكون زوجة لك. أما الآن إذا خُيّرت بين أن أسكت وأحصل على أضعاف ما كنت أحصل عليه مقابل سكوتي فلن أفعل، لن أبيع شرف أخي بالمال والهدايا.
- لكن الظاهر أنك بِعته بأرخص ثمن.
- كنت نسخايبك راجل.
- اخرجي من مكتبي، من حياتي، حثالة. ألفة سيدتك وتاج رأسك وأشرف من الشرف فهمتي.
- هاهاهاهاه أشرف من الشرف ظاهر.

كانت هذه هي آخر كلماتها معي.

لماذا لم أصدق فتحية؟ لماذا؟ ببساطة لأني كنت أراقب كل تحركات ألفة عن طريق سائقي الخاص. إضافة إلى كل وسائل المراقبة الموجودة في منزلي من أحدث الكاميرات التي تمكنني من متابعة ما يحدث في بيتي وأنا في أي مكان. سائقي كان يؤكد دوما.

- زوجتك سيدي من أشرف خلق الله ربي يفضلكم لبعضكم.

ماذا؟ أيعقل أنها كانت تخونني مع السائق؟ لا لا يمكن أن أحتمل ذلك. لماذا؟ إنها أفعى بكل ما تحمل الكلمة من معنى.

- الآن يا صالح أصبحت أفعى. أليست أشرف من الشرف؟ انبعث صوت من داخلي يقول ذلك.

قبل مجيء فتحية إلى مكتبي. ليلتها كنت عائدا من السفر محُملا بالهدايا. استقبلتني بالدموع.

– لا تُكررها صالح مرة أخرى أرجوك البيت من غيرك ظلام دامس. ما هذه الغيبة؟ في السرير وهي تمطرني بقبلاتها وترقص عارية على أنغام «زيي الهوى لعبد الحليم» اشتكت من مطالب أختي الكثيرة وطلبها المتزايد للمال وأنها قد خرجت من عندها هذه المرة في غيابي غاضبة بل تجرأت وسبتها بأشنع السباب، ولأنها تحبني وإكراما لِحبي فقد أبت أن ترد عليها لأنها في الأخير أختي.

كان هذا كافيا بالإضافة إلى تقرير السائق وكل تسجيلات الكاميرات، كان كافيا لأن أستقبل فتحية كما استقبلت ذلك اليوم. ألم أقل غبيا كنت أنا ولا زلت؟ المشكلة تكمن، هل سأظل؟

شريط كامل من الذكريات يمر الآن أمامي. ألفة تخونني. لماذا؟ أين الحب؟ أين العشرة؟ أين؟ وأين؟ هل قصّرت في شيء؟ كل تلك الدموع التي إن جمعتها شكلت وحدها مد تسونامي.

كانت تُعبر لي دائما عن حبها بالدموع، لا يمكن أن تقول أحبك دون أن ترى أثرا للدموع في عينيها. الحب، الدموع، الجنس. ثُلاثية عمقت غبائي اللامحدود وثلاثية أيقظتني من سُباتي العميق. لا، ليست ثلاثية. رباعية بإضافة عنصر الخيانة، إنه العنصر المحفز.

أولادي محمد علي وياسمين. آه هل هم أولادي حقا؟ في لحظات كهذه يتسرب الشك إليك. الشك في كل شيء، يتدفق شلالاً لا إعصاراً. يريد أن يُدمر حياتي.

رأسي ينفجر، إني أحترق، أذوب، أُجن، أموت. لا أجد التعبير الأدق الصحيح لحالتي اللعينة.

لماذا لا أتقبل الأمر؟ لماذا هذه الثورة كلها؟ هل أنا رجل شريف؟ لا وألف لا.

– أنا مخلوق قذِر.

تخونني مع رئيسي في العمل وأنا منذ عامين خلت، خنت رئيسي في العمل مع زوجته. التي أعطتني وقتها أكثر من إشارة مُشفرة على خيانة ألفة ولكنني لم أفهم. بل لم يسبق لي أبدا أن تخيلت أن زوجتي يمكن أن تخون أبدا.

أنا ربّيتها، أنا درّستها، أنا مُعلمها، وربما أنا من علّمتها الخيانة أيضا. ممكن غباء، غباء. يحرقني، يدمرني...

كيف استطاعت طوال هذه السنين أن تستغفلني؟ ربما شكّل هذا أكبر منبع لما أنا فيه من عذاب.

– إنها العدالة السماوية. صالح. إنها كذلك.

من أين تنبعث هذه الأصوات؟ من سمح لها أن تسيطر على تفكيري؟ إنها تشلني، لا أستطيع تجاوزها، تفرض نفسها على مخيلتي، على عقلي، على كل مَدَارِكي...

ذاك اليوم طلبني رئيسي في العمل، طالباً مني أن أوافيه منزله مصحوبا بمجموعة من الملفات المستعجلة وغير القابلة للتأجيل ليُوقعها لاعتلال صحته.

حملت الملفات واتجهت إلى منزل رئيسي في ضاحية المرسى. وجدت في استقبالي مدام السّيدة. أعرفها، التقينا أكثر من مرة في

أكثر من مناسبة. امرأة تجاوزت العقد الرابع من عمرها، على قدر متوسط من الجمال وعلى قدر كبير من الجاه.

كانت عائلتها السند الأساسي لرئيسي في العمل حتى يتربّع على كرسيه الحالي. وينتزعه منّي أنا الأحقّ به منه. الكلب لم يكتف بذلك، ها هو ينتزع مني زوجتي، راحة بالي... كانت زوجته امرأة مربوعة القد، آثار النفخ والشد بادية على كل جسمها، لا يمكن أن تراها دون مكياج أبدا، السيجارة دائما في يدها، نموذج آخر وفهم آخر للحداثة عند الكثيرات من نسائنا. ضَغَطت على يدي بشكل غير طبيعي وهي تستقبلني قائلة:

– دائما أنيق كالمعتاد سي صالح.

– تفضل تفضل مرحبا وألف مرحبا.

أعطيتها باقة الزهور التي جلبتها، معتذرا بأنها لا تليق بمقامها ومقام زوجها الكريم. ردت بغنج ظاهر فاضح يخفي رغبة مفضوحة:

– لا تقل ذلك أنت دائما صاحب الذوق الرفيع مسيو صالح في كل شيء.

بعد خروجي من غرفة الرئيس الذي كان يعاني صداعاً في الرأس مقروناً ببوادر أنفلونزا حادة، نتيجة سهرة خمرية صاخبة. أنفاسه ما زالت مفعمة برائحة الكحول.

وجدت مدام سيدة في انتظاري. تمنيت الشفاء العاجل لزوجها في حين سلمت عليَ بالحرارة نفسا ضاغطة أكثر على يدي بطريقة لا تخلو من إيحاء جنسي صِرف. تاركة في كف يدي ورقة صغيرة.

- اتصل بي على هذا الرقم اليوم أرجوك قبل الساعة الخامسة سأكون في انتظار مكالمتك. تحياتي السيدة.
- ماذا تريد مني هذه «العِلّة»؟

دافع واحد خطر على بالي وقتها، دفعني للاتصال بها. إنه رئيسي. أريد أن أنتصر عليه، أن أغزوه في معقله. سيطر عليَ هذا الإحساس أكثر من غيره، لا يوجد فيها ما يدعو للإثارة إلا عنجهية وتكبر زوجها. إذن آن الآوان كي أصفعه. سأسجل هدفا قاتلا في مرماه. سأنكح زوجته.

- السافل الطحان ماهوش راجل ألا يكفي أنه يجلس على كرسيٍّ أنا أحق به منه.

اتصلت بها، وجدتها في انتظار مكالمتي مُبدية لهفة غريبة. أحسست بارتعاش صوتها. كأنها مراهقة تنتظر ظهور حبيبها.

كأننا متفقين سَلَفًا. تكلمنا بكل احترافية متفقين على اللقاء في فندق «الليالي الملاح» من هناك اتصلت بها من غرفتي أجابت بعهر واضح:

- لا ياحبيبي تفضل أنت بحذايا إلى غرفتي رقم 101 أنتم جماعة الداخلية لا أمان فيكم شكون يقول ثم كاميرات تصور فيا غادي.

استقبلتني في الباب بقبلة على فمي مباشرة كانت «بروب» أزرق حريري ورائحة عطر نفاذة تساهم في تحفيز غريزتك الجنسية مباشرة.

طاولة ممتلئة بكل ما لذ وطاب أكل كله مشويات، لحوم، وأسماك... زجاجة خمر فاخرة، فواكه جافة... لم تنسَ أي شيء.

أدق التفاصيل كانت موجودة حتى الموسيقى تنبعث بهدوء كأنها تهمس في أذنك لتُحفزك. كل ما يمكن أن يغري الرجل كان موجوداً في تلك الغرفة. احترافية عالية لا نظير لها، كأنها على علم مسبق بكل ما أحب هكذا تساءلت:

– ما هذا؟ نحن في احتفال؟ فرحانة بيا للدرجة هاذي؟

– نعم حبيبي سمعتك تسبقك دائما أنا أحب أن أغتنم الفرص أن أعيش لحظتي كاملة أن أستنزفها أن أتمتع بها كما يجب.

– أنت اليوم حصاني الذي انتظرت ركوبه منذ مدة طويلة.

– ما تتصورش قداش فرحانة بيك.

– ياخي للدرجة هذه أنا مشهور؟

– أكثر ما تتصور. وهي تقبلني في فمي.

– شنو أحوال ألفة مرتك؟

– تسلم عليك برشة هههههههه.

– هههههه قلها سيدة تسلم عليك وهي تعرف وحدها.

– آش باش تعرف؟

– لا عاد هذه أُمور نساء، قُلها هي تعرف وحدها.

– أمور نساء هيا كيفاش تحبي أمورك النسوية اليوم؟

– هههههههههههه كيما تحب صلوحتي أنا رهن إشارتك، من قدام، من تالي، غربي، شرقي. اليوم باش نشيخك.

ضاجعتها كما لم أضاجع امرأة من قبل. تساءلت: لماذا كل هذا الحقد الدفين على رئيسي؟

أنا أعرفه منذ سنوات خلت، لا يمكن أن أسميه رئيسي. فنحن شركاء في أشياء كثيرة. صحيح أنه يتمتع دائما بحصة الرئيس. وهذا لا يعني أن أنكر أننا فريق واحد في خندق واحد.

– ما سبب هذا الحقد إذن؟

هل هو إحساسي الدائم بأنني الأفضل، وأنني أستحق أن أكون مكانه؟

أنا الأجدر.

لا مبرر لما فعلت يومها إلا الانتقام منه دون ذنب اقترفه. كما كنا نفعل سنوات ما يسمى بعمليات الاجتثاث. ألم نكن نجلب زوجات وأخوات المعتقلين السياسيين ونقوم بتعريتهم أمام ناظريهم، كنوع من الإذلال والإجبار على الاعتراف بكل ما نريد أن نكتبه في المحاضر.

مرة تعذّر وجود الزوجة والأخت عند أحد المتهمين، فجلبنا أمه العجوز. أراد أن يفقأ عينيه لم يتحمل رؤية أمه الطاعنة في السن في هذا المنظر وأحد الأعوان يتلاعب متلذذا بعضوها التناسلي.

– يا حاجة مازلت البركة.

أتذكر وجه ذلك المتهم إلى اليوم، لا أعتقد أنه في حالة طبيعية. كان يصيح طالبا منا أن نرحمه أن نقتله.

– لا أريد أن أعيش، لا أريد أن أعيش، اقتلوني، أرجوكم اقتلوني، يا حيوانات، يا كلاب يا... يا...

نظراتهم وهم يستسلمون، بل ينهارون، مغلقين أعينهم. واعدين بأن يفعلوا كل ما يُطلب منهم.

كانت هذه هي الصورة المسيطرة على ذهني وأنا أقذف بسائلي المنوي على وجهها. مُتخيلا رئيسي ينظر إليَ بالنظرة نفسها. مُقرا باستسلامه وإذلاله.

قذارة. ذاكرتي مليئة بالقذارة. هذا الفيديو اللعين أمامي. زوجتي ترقص أمام رئيسي عارية كما ولدتها أمها.

– عجبك شطيحي يا سبعي؟

وهو يصب عليها الخمر ويلحسه على جسمها. لا، على مهبلها. أنا رأيت ما فعل هو بزوجتي. هو لم يرَ وربما لم يسمع حتى بخيانة زوجته له معي.

– من أذل صاحبه الآن؟

نعم. هو، إنه دائما يسبقني بخطوات في كل شيء. سبقني إلى الكرسي وسبق إلى إذلالي. كان هو الأول الذي تخيلني ذليلا. كيف كان ينظر إليَ كل هذا الوقت كل هذه السنين؟

كل صباح نلتقي قد نحتسي شرابا معا.

كم من مرة سألني عنها بكل أدب كأنه يسأل عن زوجة قس.

وربما للحظات قبل أن يراني ويسألني كان يلحس جسمها، مهبلها. الكلب الحقير الوضيع. زوجته السيدة كانت تعرف. الآن فهمت، الآن.

– قلها السيدة تسلم عليك وهي تعرف.

الآن فهمت. أنانيتي، إحساسي الدائم أنني صنعتها، كوّنتها كما أحب، جعلني أعتقد أنها مِلك لي، لن تُفكر في أحد غيري. فكيف ستخون إذن؟

انبعث ذلك الصوت المخيف، المرعب من داخلي ليؤكد. أن المنتصر هو الشيطان، الرذيلة، القذارة...

يومها في فندق الليالي الملاح. وأنا مَزهُوّ بنصري على رئيسي، لاعتقادي أنني اقتحمت حصنه، أنني غزوته. سيطر عليَ سؤال قلت للسيدة وهي عارية في حضني. لست أدري؟ لماذا سألت؟ أ لأن زوجها كان يشكّل عقدة حياتي؟ خمسة وعشرون عاما من العمل كفريق، دائما يسبقني إلى ما أريد، هل يمكن أن يتحول التنافس في العمل إلى كل هذا الحقد والرغبة في التدمير؟ بل الموت أحيانا، إحساسي بتفوقه يُرهقني، لأنه لم يتفوق لأنه الأفضل، لا. وألف لا. تفوّق لأن هناك دائما من يضع اسمه في القائمة الأولى وفي قائمة الترقيات والمراكز المهمة. انتمائه لمنطقة الساحل فقط من مَهّد له الطريق، بالإضافة إلى دعم أصهاره. كل هذا جعله المتفوق، في حين كنا نحن من يعمل ويسهر الليالي لننال وبصمت- ما يُقدم لنا دون أن ننبس بكلمة واحدة. وإن كان ما نناله لا يتماشى مع انتظاراتنا وما نستحق. يومها في الفندق مع زوجته العارية في حضني طرحت الكثير من الأسئلة الغبية رغبة مني في اكتشاف نُقط ضعفه وظنا مني أنه ربما يكون به عجز ما. أرضى هذا الظن غروري وقتها.

- ألا يُشبعك زوجك على السرير يا سيدة؟

وقتها أجابت كي أفهم. لكنني كنت منشغلا بصورة رئيسي وبنصري المزعوم في مخيلتي عليه.

- لا يوجد رجل يمكن أن يُشبع امرأة. إن قالت لك امرأة ذلك فهي تكذب. توجد امرأة قنوعة، ورجل قنوع، لا وجود للإشباع قط.

جل النساء اللواتي يعشن في وسطنا القذر هذا المليء بخيانة العشق والجنس مثلي أو أكثر صلوحتي.

– الحمد لله ألفة من القلائل.

قالت بعهر:

– الحمد لله. ايه عندك الحق هههه. احمد ربي يا راجل. ثم سكتت برهة وأكملت:

– أنتم الرجال حمقى. تعيشون داخل فقاعة مَرَضِية، مُزمنة، مَكسوة بفحولة زائفة. وجل النساء يغذينها فيكم لغاية في نفس يعقوب...

لأسباب لا تعرفونها بل تعرفونها في أحيان كثيرة وتتجاهلونها كي لا تصطدموا بما لا تحبون. شئ مُريع بالنسبة للرجل ألا يكون فحلا. يحب أن يسمع دائما ما يؤكد فحولته ولو كذبا. يرضي ذلك غروره.

المرأة دوما وفي الغالب تذهب إلى ما تريد مباشرة إلى ما تريد. بينما أنتم تدورون وتدورون في الفراغ الممل. بل أنتم جزء من لعبة نسائية لا غير.

المرأة لا تبحث عن المساواة كما تعتقدون. بل تحب أن يعتلي صدرها ويغزو فرجها من يكون أعلى مستوى منها، يُشعرها ذلك باللذة وبالتميز، المرأة لا تخوض صراعا ضد الرجل هي تخوض صراعا ضد نظيرتها المرأة. كما أفعل أنا الآن هنا. أنا أعتدي على حقوق واحدة غيري وربما هناك من تعتدي وتقتحم حدودي الساعة أيضا. كما تعتدي أنت على حدود ذكر آخر مثلك. كلما اعقتدت المراة أنها تفوقت على نظيرتها المرأة في عدد الرجال المحيطين

بها، المحبين لها، الذين يرغبون في ودها، في لباسها في... في... هذا فقط ما يرضي غرورها، بل ويزيدها انتشاء ومتعة.

وإن حدث واستسلمت بدافع الرغبة لمن هو أدنى منها فإنها تحرص على أن يتم ذلك في السر. أما إذا أحبت، وأقول أحبت.. -لأن الحب عند المرأة لا يفهمه الكثيرون- إن أحبت من هو أدنى مستوى منها. فإنها تجعل من نفسها سُلما يرتقي عليه ليصل إلى الدرجة التي تُرضي غرورها هي وتجعلها فخورة به.

التاريخ يشهد على صناعة النساء لأبطال وحكام لم يكونوا شيئاً. صُنعوا بدافع الحب ومن الحب. لكن الرجل والحتمية التاريخية تؤكد ذلك ما إن يتربع على المجد الذي وصل إليه ولا يمكن أن ننكر دوره فيه. حتى تكون المرأة التي كانت هي السبب فيما هو فيه أول ضحاياه.. أترى كم أنتم الرجال مخلوقات بشعة؟

- اسمع أسيدي لآلة السيدة أم الحكمة والفلسفة.
- أنا أتكلم من منطلق تجربة وجرح ستفهمه فيما بعد ربما بعد فوات الآوان. أنا متأكدة أنك ستفهم يوما.
- السيدة أنا ما نحب نفهم شيء. أنا لي يهمني أنني مسيطر على اللعبة وكفى.
- أتدري يا صالح؟ ما يحول بين المرأة والخيانة. إنه الحياء. إذا انتزع هذا الأخير من المرأة صارت مخلوقا مشوها فاقدا لعذريته، والعذرية لا تقتصر على الغشاء الموجود في المهبل وللأسف هذا اعتقاد الكثيرين.

العذرية منظومة متكاملة. سلوك، تربية. أتدري؟ عندما تزوجت كنت أخجل أن أنظر إلى زوجي ملء عيني وهو عار. والآن أنا أمص العشرات، بل المئات من القضبان الذكورية لرجال لا أعرفهم حتى. دون إحساس بخجل أو عار.

إن البرنامج الذي سُطر وطُبق عن قصد لانتزاع الحياء من المرأة باسم حريتها ولا أدري مصلحة من يخدم؟ كانت المرأة والرجل أول من اكتوى بناره، لأنه أعطى شيئا وهميا للمرأة، وفي المقابل انترع منها أشياء كثيرة. فقدت أنوثتها الحقيقية، براءتها، تحول غالبيتهن إلى سلعة.

عندما تكون في بلد فيه مواخير مُرخصة، يباع فيها لحم المرأة، أعتقد أن لا معنى للكلام عن حرية وكرامة لهذه الأخيرة هنا. وهذا لا ينفي أن هذه الحرية استفادت منها نسبة لا بأس بها من النساء. تظل نسبة قليلة صحيح لكنها في المقابل مكنتنا من رؤية نساء في أماكن لم نكن نحلم أن نراهن فيها من قبل. نساء استطعن أن يفهمن المعنى الحقيقي لهذه الحرية، نساء استطعن أن يكسبن احترام الكثيرين، بل دخلن التاريخ من بابه الواسع.

هناك مشكلة في الوصفة والفهم لهذا المفهوم وهناك مشكلة أيضا في التطبيق.

غريب أمر هذا الرجل الذي طلب وشجّع المرأة على أن تتعرى في الشارع باعتبار ذلك علامة من علامات التقدم والرقي. ثم يغار عليها باسم الشرف والمبادئ. هل يستقيم هذا؟ تناقض مُريع يربط تحرر المرأة بالتعري.

التحرر يكون فكريا. أن نعرف مثلا أن لا دخل لحدوة الحصان فيما نحن فيه من بؤس. عظام الحوت والخمُسة لا يُقدّمان ولا يدفعان عنا البلاء والحسد الذي نصنعه بأيدينا. كيف لجسد عار يحمل هذه القاذورات من الأفكار رجالا ونساء أن يكون متحرراً. إنه جسد. منهك، متعب، مريض...

لم تتحرر المرأة بعد. تَحرر الطريق إلى مهبلها فقط. بينما دعّمنا وعمّقنا من جهلها. وإذا جهلت المرأة فالمجتمع كله جاهل بذكوره وإناثه. أنتم الذكور. عندما تتباهون أمام الآخرين. زهوا وافتخارا بفحولة زائفة. وأنتم تنتقلون من نهد هذه، إلى فخد الأخرى... دون أن تعرفوا بأن الآية ستنقلب، ودوما تنقلب حيث تجدون أن ما تُسمونه شرفاً. قد انتُهك في جسد زوجتك، ابنتك، أختك، كما انتهكته أنت في جسد فتاة أخرى والتي هي ابنة أحدهم، أخته، زوجته... تنتفضون باسم الشرف. في حالة كهذه فقط. هل تملكون شرفا فعلا لتنتفضوا من أجله؟ هل كنتم أنتم تقطفون الزهور مثلا في انتقالكم من فتاة لأخرى؟

– ماذا تقصدين السيدة؟

– أتفلسف فقط صلوحي كما قلت أنت، لا تنس أنني خريجة كلية الآداب قسم فلسفة.. هيا بنا صالح لنخرج من هنا. رأسي يوجعني يكاد ينفجر، تكلمت كثيرا. سأتذكر أمسيتنا هذه. وسيأتي يوم ستتذكرها أنت أيضا بكل تفاصيلها الصغيرة. أعدك.

- شكرا كانت أمسية جميلة تمتعت معك. وفضفضت، وقلت أشياء لم أكن أتصور أن أقولها، بل كنت قد برمجت نفسي على قول أشياء أخرى، لكن لا يهم كل شيء في وقته أحسن.

الساعة، ذاكرتي اللعينة تستحضر تلك الأمسية بكل تفاصيلها، كل ما دار فيها من حوار. جملة جملة، كلمة كلمة. كل تلك الإشارات التي بعثت بها السيدة لأنتبه وأتفطن لم تنفع ليلتها. نعم كانت تود إخباري لكنها ربما ظنت أنني أستحق ما أنا فيه. وتركتني أعتقد أنها امرأة فاجرة، تريد أن تكسو فجورها بغطاء ثقافي كما يفعل الكثيرون. رجالا ونساء.

لكنها كانت محقة، وكانت تعي ما تقول وتتكلم كما قالت من منطلق تجربة كلها ألم وجروح. الآن سيدتي فهمت.. الآن.

- لكن أتعلم؟ حسك الأمني يسيطر عليك. لا تتكلم كثيرا ولا تعبّر عن شيء.
- أنا رجل عملي ألم يعجبك عملي هههههههههههههه؟
- أكثر من رائع لم أندم. صحيح ما يُقال عنك. مُمتع أن تمارس المرأة الجنس مع رجل وسيم، تتمتع بذلك ويُرضي غرورها رغم أن شهرتك تسبقك. فحل حقيقي صحة ليها ألفة. زين وفحولة.

«أعجبك رقصي سبعي؟» عبارة تطن في أذني. تُحدث طنينا مرعبا مقترنا بالصور، عارية هي كما ولدتها أمها.

لا أدري نمت أم غفوت في مكتبي. تمنيت أن تكون كل هواجسي تلك حلم، تمنيت لو كانت كابوساً ينتهي بانتهاء النوم. لكن استيقظت من غفوتي لأجد التقرير اللعين أمامي. يقول، يصرخ: إنها الحقيقة المُرة التي لم تكن ترغب مواجهتها. هي أمامك الآن.

كانت نظراتي كلها منصبه صوب التقرير اللعين أتاكد. أحقيقة هو أم حلم؟ عندما أيقظني السائق وهو يدق بلطف على الباب.

– سيدي سيدي. لاباس؟

– كم الوقت الآن؟

– السابعة مساء سيدي.

– اترك مفاتيح السيارة وانطلق لاباس سأذهب وحدي اليوم.

– باهي عرفي تصبح على خير إن شاء الله لاباس.

إلى أين سأذهب؟ إلى المنزل. عندما أراها، أرى وجهها الخائن. هل سأسيطر على أعصابي عند رؤيتها؟

جرت العادة قبل أن اكتشف ما اكتشفت اليوم. أن أعرج قبل عودتي إلى المنزل على بار فندق «الليالي الملاح». أجد شلة القارورة الخضراء، كلها مجتمعة. محاميين كبار، قضاة، دكاترة، رجال السياسية، أمنيين... نتلذذ نحن الصف الثالث للأطر العليا لهذه البلاد بشرب نخب يوم آخر من المتع والخيرات التي يُدِرُّهَا علينا هذا الوطن الحبيب. مكاني دائما محفوظ داخل الشلة. أنا المْعْلّم ولا أُنادى إلا بهذا اللقب.

– أين المعلم؟ جاء المعلم، وربما كلهم في قفاي يعرفون ويقولون:

– مرة المعلم ت....ك يا ناس.

أو ربما استبدلوا عبارة المعلم ب جاء الط...ان، ذهب الط... ان.

الكل يعرف إلا أنا. أي معلم أكون؟ بالونة منفوخة لغاية في نفس يعقوب لا غير.

لا يهم فأنا أعرف عن أغلبهم أيضا أشياء تقشعر لِذكرها الأبدان. بعد أن نسكر ونكون قد اتفقنا خلال تلك الجلسة الخمرية على حل مجموعة من القضايا المهمة وتسهيل أشياء وأشياء بكل الطرق المشروعة وغير مشروعة. أعود إلى المنزل. غالبا حوالي الساعة التاسعة مساءً.

أجدها دوما في انتظاري. أنيقة، جميلة، محبة، تستقبلني بقبلة على الخد.

- جيت حُبي.

تنزع عني السترة أو المعطف ونحن متجهان إلى قاعة الطعام. غالبا ما نتناول وجبة العشاء وحدنا، يكون الأولاد إما في الخارج أو قد تعشوا وفي غرفهم بحجة المذاكرة أو أشياء أخرى. على طاولة العشاء يكاد يكون الحوار نفسه يُعاد كل يوم بالصيغ نفسها أو بصيغ مختلفة حسب الظروف. أطرح الأسئلة ذاتها وأتلقى الأجوبة ذاتها كل يوم تقريبا.

- الأولاد لاباس؟ وينهم؟ آش عاملين؟ أسئلة تُوحي أنني أسال. لأقوم بدور الأب. كان هذا كافيا ومريحا لضميري.
- الأولاد لاباس. تعشوا وطلعوا يراجعوا. في أيام الدراسة كانت هذه هي الإجابة. أما في العطل.
- مازال ماجوش. خرجوا مع صحابهم.

اليوم. اكتشفت أن زوجتي تخونني. ماذا ينتظرني لأكتشفه أيضا؟ ربما تكون هناك مصائب أكبر من هذه المصيبة. يجب أن أعرف كل صغيرة وكبيرة عن أولادي يجب. هل فات الأوان؟ هل سأجدهم كما تخيلت؟ كما كنت أريد لهما أن يكونا. لقد خيبا

توجههما الدراسي ظني. أتمنى ألّا يخيب ظني أكثر. هذا أقصى ما أتمناه الساعة. هما أبنائي مهما حصل ومهما بلغت شكوكي، إنهما حصني الأخير، ملاذي، لأنقذ ما يمكن أن أسميه أسرة.

في السهرة التي لا تتعدى ساعة زمنية على أبعد تقدير، إن لم نكن ملتزمين بدعوة أو سهرة أو سفر. كانت تسرد عليّ بكل عفوية. أو هكذا كنت أتخيل أنا الذي أعود كل يوم مخمورا بنصف عقل. تفاصيل يومها التي تشبه بعضها بعضا في المجمل. ابتداء من متابعتها الدؤوبة لشؤون الأولاد من شراء و... و... إلى استقبالها لأختها أو أمها أو أنها عرجت عليهم في منزلهم.

يومها تجاوزت الساعة على الحائط السابعة والنصف وأنا لا أزال قابعا في مكتبي الفخم في الوزارة. أخرج إلى أين سأذهب؟ لن أسكر اليوم. سيفضح الخمر أمري، سأُكسر رأسها إن سكرت. أريد أن أظل في كامل وعيي لأتصرف التصرف المناسب.

أعود إلى البيت؟ أي بيت؟ لا أستطيع النظر إلى وجهها، ما إن أراها سأنهال عليها بالصفعات. تحسست مسدسي. محشو كالعادة. هل أقتلها؟

سيطرت عليَ لحظتئذ رغبة قتلها. يمكن أن أتدبر أي طريقة، حيلة، وأتخلص منها بكل سهولة. حادثة سير مُفتعلة. سم ذو مفعول بطيء...

لا. لا. كل هذا لن يُشفي غليلي، أريد أن أقتلها وجها لوجه، أن أرى الرعب في عينيها، أن أقول لها إنني اكتشفت ألاعيبك التي لن تنطليَ عليَ بعد اليوم. نعم لا تنطلي عليَ حيلك بعد الآن. عاهرة.

لا. أريد أن أسالها. لماذا؟ لماذا؟ ما الشيء المُميز الذي وجدتِه في ذاك القرد؟

يقول العرب: إن عار الشرف لا يغسله إلا الدم. هل أنا عربي فعلا؟ هل استيقظت هذه الجينات اللعينة؟ لكنني كنت دائما أقهقه مؤكدا أنني أمازيغي أبا عن جد. ومعتبرا أن العرب الغازين لا مكان لهم في بلادنا. ما هو عرف الأمازيغ في عار الشرف؟ لا أدري، لا أدري. كل ما أعرفه أنني أشتهي قتلها، أن أمتص دمها، أن أرى عيناها تخرجان من مُقلتيهما.

خرجت من مبنى الوزارة من القلعة الرمادية أو الأسمنتية المهيبة والمخيفة. تُحيط بها الأسلاك الشائكة من كل جانب بعد الثورة. ممنوع مرور السيارات أمامها رغم أنها تنتصب في أكبر شارع من شوارع العاصمة. حتى الراجلين المسموح لهم بالمرور من أمامها تجد عددهم قليلا لحرص الناس على تفادي المرور أمام هذه القلعة المخيفة التي شكلت لسنوات خلت لغزا مُحيرا للكثيرين نتيجة ما يسمعون عنها من قصص مخيفة كلها ترتبط بالتعذيب، حتى ذهب البعض في تخيلاتهم أن سراديب التعذيب موجودة تحت الشارع حيث يمر الناس.

أمام المبنى نصبان تذكاريان ضخمان، واحد عبارة عن ساعة ضخمة من النحاس محاطة ببركة مياه ضحلة ذهبت زرقتها أدراج الرياح. تُجسد ما يسمى بالتحول المبارك الذي استلم فيه الجنرال بن علي السلطة مُزيحا الزعيم والمجاهد الأكبر بورقيبة. ليزج به في إقامة جبرية في مدينة المنستير. دامت أكثر من عشر سنوات خرج منها مباشرة إلى قبره. النصب الثاني يُجسد الزعيم وما أدراك

ما الزعيم المُحرّر. وهو يمتطي صهوة جوداه الأدهم. الذي تعلم الركوب عليه على يد الفرنسيين أياما قليلة قبل عودته المضفرة إلى تونس عبر ميناء حلق الواد.

نصب الزعيم أعيد إلى مكانه بعد الثورة، إذ تعرض هو الآخر إلى النفي كصاحبه. التاريخ أعاد لبورقيبة سيناريو الباي نفسه دون نقصان. وأعاد لبن علي سيناريو بورقيبة نفسه وزيادة. مفارقات عجيبة. جمعت بورقيبة وبن عْلي المدرسة نفسها، الجهة نفسها، والمسار نفسه. الاثنان تغنيا طوال فترة حكمهما بتحرير المرأة ونسيا أنهما أول ما تخلّيا عندما استلما الحكم.. تخلّيا عن زوجتيهما. رفيقتا دربهما وبؤسهما. عندما تربّعا على المجد كانت الزوجتان أول قربان يُذبح على محراب المرأة. وكلاهما ارتبط بامرأة كانت إلى حد قريب السبب في بعثه إلى حيث لا يعود. الأول إقامة جبرية رفضت فيها الزوجة الثانية وسيلة زيارته طيلة إقامته رغم طلبه لذلك. والآخر ساهم تغلغل زوجته وأسرتها في مفاصل الدولة في تأجيج الغضب الشعبي عليه. الشعب الذي خرج أمام القلعة الرمادية باعتبارها رمزا سياديا للحكم لم يذهب إلى القصر بل اختار القلعة التي ارتبطت في مخيلته بالظلم والقمع ليقول لنظام الجنرال ارحل. آلاف الحناجر المتعطشة للحرية للكرامة خرجت تصيح وتهتف «خبز وماء وبن عْلي لا».

لست أدري من الذي أوحى لهم بهذا الشعار الذي لم يصمد ولو للحظة. إذ مباشرة بعد هروب البعبع نتيجة ما يمكن أن نسميه بتحفظ شديد «ثورة»، ظن الجميع للحظة وهم منتشون أننا قطعنا

الطريق ونجح الأمر. في حين لا يعدو الأمر أن يكون خطوة وحيدة في الاتجاه الصحيح، يمكن أن تجمّد في مكانها وتصبح خطوة عرجاء لا معنى لها إذ لم يتوفر الوعي التام بالظرفية التي ستمر منها البلاد والتي ستتمخض عن هذا التغيير.

للأسف أصبح الكل يطالب بحصته من الكعكة، فقد شعار الثورة معناه.

«خبز وماء وبن عْلي لا».

فقد معناه في الأسابيع الأولى، الكل يتسابق من أجل حصة، المُعطلون اعتقدوا أن الوظائف كانت في جيب بن علي وستصبح متاحة بعد هروبه. الموظفون كذلك. طلبات بالزيادات في الرواتب وزيادات مشطّة، انتشرت الفوضى من إضرابات وقطع الطرقات الخ الخ الخ..... شعار «خبز وماء وبن عْلي لا» كان مجرد صراخ أجوف في صحراء قاحلة، صراخ لطفل لم ينضج بعد، بل لا يعرف كيف يحصل على ما يريد ومتى.

هكذا بدأنا نضلّ الطريق. وعدنا من حيث بدأنا ننتج ببطء شديد ما هدمناه. بل أصبح الكثير يرى في نظام بن علي الأمان والاستقرار.

أخاف أن نعيد نحن العبارة نفسها لكن بعد فوات الأوان كما فعل المخلوع «فهمتكم». عبارة ستظل منقوشة في الذاكرة العربية لسنوات وأجيال كتعبير وكاعتراف واضح بأن الحبل مقطوع كليا بين السلطة والشعب، بين ربّ الأسرة والأسرة بين... وبين... رئيس يحكم شعبا وبلادا لأكثر من خمس وعشرين سنة ليكتشف أنه فهمهم أخيرا، وشعب يحكمه رئيس للمدة نفسها ولم يفهم بعد إن كان صالحا أم طالحا.

لسعتني لفحة برد شهر جانفي أثناء خروجي من الوزارة. تذكرت أنني خرجت بلا معطف. جانفي شهر بارد بأتم معنى الكلمة. لكن في تونس يقولون إنه شهر ساخن جداً لكثرة الاضطرابات والاحتجاجات التي حصلت فيه. هذه السنة اضطراباته لفحتني وحدي.

سيارة الحراسة تنتظرني في الخارج لم تبارح مكانها لتُؤمن لي الحماية في طريقي إلى المنزل الذي يخضع بدوره للحراسة على مدار أربع وعشرين ساعة. أنا رجل مهم في دولة غير مهمة. جرت العادة أن أصرفهم عندما أصل إلى الفندق ما لم أكن مرتبطا بلقاء رسمي أو اجتماع.

هذه المرة صرفتهم بإشارة مني من أمام المبنى. كانت علامات الفرحة ظاهرة على مُحياهم. اختفى فجأة امتعاض الانتظار. على الأقل كل واحد منهم يعرف أين سيذهب. رغم أن الطابع الغالب على شريحة كبيرة منهم القارورة الخضراء حبيبة الجماهير «سلتيا» المشروب رقم واحد في البلاد. مُعَدِّل الأمزجة ومُكَيّفها. الشراب الروحي، صلاة الكثير من الجماهير.

رنّ جرس هاتفي، أغلقته بسرعة دون أن أعرف هوية المتصل. لا أريد أن أكلم أحدا. لا الشلة، ولا غير الشلة. فجأة خطرت في ذهني أختي فتحية.

نعم، أزور فتحية الوحيدة التي أستطيع أن أحكي لها هُمومي وكل ما يقلقني دون أي إحساس بالخجل. وأكثر من ذلك أنا مَدين لها باعتذار كبير.

الفصل 2

الرحم المقطوع

ياقاطع الأرحام في كل الدنا
ستجده في كأس الحياة شراب
دين القطيعة مضمون الوفا
ويُريكَه الأولاد والأصحاب
لا تتركوا الأحقاد تملأ صدرنا
فيشيب منها القلب وهو شباب

أنا الابن الثالث والأخير من أسرة عمار العطار. كيف تحولت هكذا؟ إنني لا أكاد أعرف نفسي. خمس سنوات مضت لم أرَ فيها فتحية أختي. مُذ أن جاءت إلى مكتبي تُحذرني خيانة ألفة.

أ كان كل هذا عقابا؟

أ يستحق ما اعتقدته أنا وقتها جُرمًا كل هذا الجفاء؟

أم أنني كنت أريد أن أقطع الحبل مع كل ما يربطني بعُقد الماضي؟ أخي الطاهر. أستاذ يقطن مدينة المرناقية. الصورة المتطورة جينيا من أبي. إن حصل ورأيته ليس لحرص مني، بل منه، هو دائم السؤال عن أحوالي وأحوال أولادي، ربما التقينا مرةً في السنة. مدة عشر أو خمس دقائق على أبعد تقدير. ودائما هو من يُبادر بالزيارة. في البيت دوما أتذرع بضيق الوقت لارتباطي بموعد أو عمل. في المكتب الشيء نفسه. الحوار يكون ثقيلا ممُلِا. لا يتجاوز الرسميات. كيف حال الأولاد؟ الصحة...؟ حاجتك بحاجة؟ سلم على المدام والأولاد وأنا أضيف مستعجلا إنهاء اللقاء:

– الله غالب. الله يلعن بو الوقت. هاك تشوف الخدمة والمسؤولية.

كل أوقات فراغي في الحانات وبين أحضان العاهرات. مسكين هذا العمل كل شيء يُسجل على فاتورته وهو بريء من ذلك براءة الذئب من دم يوسف.

تبا، تبا، تبا أيها الضمير التّعس أما ظللت نائما، تائها كان أفضل. أمْ أن ما سمعته وقرأته يوما كان صحيحاً، والأكثر من ذلك اصطدم به الآن. يقولون: إن الضمير لا يموت ولكنه ينام فقط وإن كَف عن تذكير صاحبه وتنبيهه في حالة الوعي بأن ما تقوم به خطأ، عيب، حرام، قذارة... فإنه ينتقل ليُنغص حياته في اللاوعي ويجعلها ضنكا، حيث يفقد صاحبها لذة التمتع بالأشياء، لتصبح عبارة عن حركات عادية. هنا يدخل مجبراً في دوامة البحث المسعور عن اللذة والإثارة. سيُجرب الحصول عليها بطرق شتى وشاذة. في المآكل، والمشارب والمناكح...

أيها الضمير النائم أما ظللت نائما كان أفضل. أي شيطان لعين سَوّل لي أن أكلف الملازم الجديد في المكتب بمراقبة زوجتي ألفة. أعطيته الاسم دون أن أذكر صلتها بي، مبديا شكوكي بنشاطها طالبا منه وضعها تحت المراقبة لمدة ثلاثة أيام ومَدّي شخصيا بكل تحركاتها مهما كانت تافهة. النتيجة صور وفيديو تقشعر له الأبدان.

– أنا آسف سيدي لم أكن أعرف صلتك بالمعنية بالأمر في البداية. ترددت كثيرا بعد أن عرفت قبل أن أُقدم لك هذا التقرير.

عجبك شطيحي يا سبعي؟

إن هذه الصورة وهذه الكلمة تُلاحقني. سبعي. أنا عيناها وهو سبعُها. عاهرة بنت مُومس.

هذا القرد سبعُها. ماذا عشقت فيه؟ أصلع أميل إلى القصر منه إلى الطول. وجه مجذور، أنف أفطس، بطنه تسبقه كأنه امرأة حامل في شهرها الخامس. ماذا عشقت فيه؟ كيف تخونني؟ أنا الوسيم الذي تحلف النساء بأناقته ووسامته.

مع هذا القرد. مع هذا القرد. هذا سبعُها. سبعها قرد؟ آه كم أشتهي قتلهما معا، نعم يجب أن أقتلهما معا.

– الكلب ابن الكلب. ماهوش راجل. معقد، مرتو قردة، وهو قرد، غاير مني.

– كيف تدنت وسقطت إلى هذا المستوى؟

– سبعي.

– شنو أحوال مدام ألفة يا صالح والأولاد لاباس؟

– لاباس الحمد الله الله يخليك يعيشك.

– تبارك الله عليها مرتك تعرف تختار ربي يفضلهالك.

هكذا يسألني دائما الكلب كلما دخلت عليه المكتب. الكلب يتمنيك عليّ شاهيها من مدة ويتمنيك عليّ.

سأكسر رأسه. لكن كيف؟ هو بالذات أريد أن أُكسر رأسه. لكن كيف؟

هذا القرد أخذ مكاني في الوزارة، والآن أخذ زوجتي، لا. بل دَنّس حياتي جعلني أعاف أن أعيشها، دَمّرها.

دون أن أدري كيف؟ وجدت نفسي في شارع النخيل في الدندان. كنت أسوق كالتائه. سمعت آلاف المنبهات في الطريق تنبهني،، بل ربما خيل إليّ أن أحدهم شتمني عندما حرمته في الطريق من أولوية لصالحه.

بهيم.

أمام منزلنا منزل عمار العطار، في شارع النخيل في مدينة الدندان، عادت الذكريات تفرض نفسها من جديد. خمس سنوات مضت على آخر زيارة لهذا المكان.

هنا مرتع الطفولة والشباب، هنا مرتع الحب مع ألفة. تحت شجرة الليمون في بهو منزلنا التقينا أول مرة. منزلنا الذي احتفظت به أختي فتحية لرعايتها لأمي في شيخوختها بعد وفاة أبي. وأيضا لأن قطار الزواج قد تأخر على محطتها لتواضع في جمالها وسلاطة لسانها وعلو سقف أحلامها في مواصفات العريس.

لكن عندما بلغت الثلاثين بدأ رأسها يلين ما إن تقدم لخطبتها حمة «الطاكسيست» حتى وافقت. واشترطنا عليه أن يسكن المنزل. لم يكن ليرفض لتواضع موارده المادية. بالعكس كان ينتظر مثل

هذا الاقتراح. ظلا يسكنان هنا حتى بعد وفاة أمي. هنا أنجبا كلا من سفيان ومَروى.

كانت فتحية الأقرب إلى قلبي. كنت أجافي أخي الطاهر منذ كنت شابا لكنني لم أكن أَطيق صبرا على صحبة أختي فتحية. كانت تزورني باستمرار هي وزوجها وأولادها وإن لم تفعل كنت أغتنم أقرب فرصة لأزورها.

تكفلت أنا بمصاريف دراسة أبنائها الابتدائية في مدرسة خاصة بشكل كامل. كان حمة خدوما وطيبا جدا، يعرف حدوده، غير مزعج البتة. مكّنته من سيارة مع رخصة دائمة، أصبح مالكا للسيارة بعدما كان يعمل بأجرة يومية. بعد عراكي وجفائي لفتحية حاول أن يتصل بي أكثر من مرة. لم يجد إلا الجفاء. قاحل أنا أينما حللت وارتحلت.

هنا عاش أبي وأمي لأكثر من أربعين سنة زواج. لم أسمع لا من قريب ولا من بعيد مجرد شك. ما سر هذه المتانة في العلاقة؟ من أين كانت تستمد قوتها؟ لا علاقة حب قبل الزواج بل حتى الخطبة، كانت شكلية لا تُعطي للخطيب أي حق مما تعطيه اليوم. أصبح الصديق يتمتع بحقوق الخطيب والخطيب يتمتع بحقوق الزوج والزوج يتمتع بحقوق المطلق يعطي النفقة فقط. لأنه قد تم استنزاف كل المتع في غير وقتها، وعندما يأتي أوانها. تكون بلا طعم، تفقد رونقها، بل تصبح في أحيان كثيرة عذابا نتيجة الإسقاطات التي نسقط فيها. تُصبح منبعا للشك...

نحن في عصر الحرية، الحب، القبلات في الشوارع، الجنس المُحرّم اللذيذ. كل المقاهي، الشوارع، الحدائق، الشواطئ. تشهد

آلاف قصص الحب كل يوم، كل دقيقة. ومع ذلك يظل أكبر شاهد حقيقي لهذه القصص. أروقة المحاكم بعد الزواج ومستشفيات الولادة للكثير من الأمهات العازبات. هناك يختفي الحب، يصبح سرابا، تذوب الذكور، تهرب، كأنها لم تمر من هناك، كأن سائلها المنوي المتعفن لم يستبح تلك الفروج والقلوب المتعطشة للحب بكلام معسول ووعود لم يتبق منها شيء. أمهات عازبات محطمات باسم الحرية، دور للأطفال المتخلى عنهم باسم الحرية. مواخير يباع فيها جسد المرأة باسم الحرية. هذا هو حصادُنا.

– لماذا؟ ماهي الوصفة الغائبة التي ملكها أجدادنا وغابت عنا؟

– عجبك رقصي سبعي؟

وتعود الكلمة اللعينة مصحوبة بالصور لتذكرني بقذاراتي أنا، بعيشي –الذي يحلم كل من يراه من الخارج –بَرّاقاً– أن يعيشه معتقدا فيه السعادة الكاملة وهو لا يعدو أن يكون قذارة في قذارة.

لماذا أُسقط عُقدي وفشلي على الآخرين. ها هي فتحية وأخي الطاهر أمامي لا حب ولا هم يحزنون، موارد مالية محدودة، أبناء ناجحون، أسرة متماسكة. أخذا عن أبي وأمي ما لم آخذه أنا. أخذا ما غاب عني. ما اعتبرته تخلفا. أنا لست في حالة تسمح لي بتقييم أخلاق الناس، أنا إنسان قذر، كلي قذارة ومع ذلك أحلم أن أعيش حياة نظيفة. أيّ سخافة هذه؟

طرقت باب منزلنا الذي ضيّعت مفاتحه منذ زمن طويل، لم يجب أحد لا فتحية ولا أولادها، حتى «طاكسي» حمّه زوجها غير مركونة في الخارج. أيقظتني جارتنا القديمة من غفوتي وسرحاني.

– عالسلامة صالح ولدي. ماعرفتنيش؟

ركزت نظري كثيرا

– آه خالتي زهرة، ع السلامة، شنو أحوالك؟

– هيا باهي. قلت بالكشي ماعرفنيش حتى أنا. الله يرحم أمك كانت كيف أختي. العشرة عندها ناسها وليدي. ربي يهدي واكهو.

– هذا كلام خالتي زهرة راني ماكنتش نخرج من دارك، حمودة ولدك خويا راهو.

– هاو باهي كيما زلت تذكر اسمو، الماء والملح ما يهون كان على ولاد الحرام. وأنت يا وليدي والديك الله يرحمهم ويوسع عليهم أولاد حلال مصفين.

– والله يا خالتي زهرة مشاغل يلعن الشيطان.

لم أعهد نفسي أتكلم بهكذا لغة منذ أمد بعيد. رُغما عني خرجت الكلمات هكذا كأن شخصا أخر سكنني، لم يسبق أن حمّلت كلامي نوعا من الاعتراف بالذنب منذ عهد بعيد.

– يا اخي وينها فتحية؟

– علاش. ما في بالكش؟ حتى هي قالت: خالتي زهرة ما في بالوش، أما باش يجي أعطيه مفتاح الدار وقولو.

– إن شاء الله خير خالتي زهرة. فجعتني.

– نسيبك حمّه الله يرحمو عندو شهر ونص عمل حادث ومات، تقلبت بيه الطاكسي.

– شْنَوَ، شنو، شنو. وقتاش؟ وقتاش؟ كيفاش؟

– الحكاية عندها أكثر من شهر وليدي أختك عندها حق قالتلي ما فيبالوش خويا ونعرفو.

اتصل بيك خوك الطاهر لين شبع، جاك للدار وللوزارة قالوا لو مسافر ومرتك في بالها.

- ياخي ماقلتلكش؟ ولادك اللهم صلي على النبي جُو وقاموا بالواجب وأكثر، ربي يبارك ليك فيهم وليدي. محمد علي ولدك تقول عمو فولة وتقسمت اثنين، سبحان الله رزانة وثبات وعقل.
- لا. لا. لا ما قالتليش كنت مسافر.

أردفت ربما كاذبا أو صادقا.

- الحاصيلو ولدي أختك تعبت برشة بعد المرحوم النهار كلو تهلوس وتتذكر في بوك وأمك والمرحوم. ياخي رجع سفيان ولدها من فرنسا تبارك الله تخرج مهندس ويخدم غادي. ومَرْوَى قريب تولي طبيبة هزوها للطبيب نصحهم يبدلوا السكنى. الحق ولات لاباس وجات لهنا عملوا الأربعين مْتَاع حَمّه الله يرحمو وقالت لي إلى قلتولك وخلات لي المفتاح نعطيه ليك إلا جيت ونمرو متاع تيلفونها تفضل وليدي أمانتك.
- وين تسكن هي خالتي زهرة تو؟
- في عين زغوان البالاصات.
- سبحان الله أختي تسكن في حومتي وأنا ما في باليش.
- ادخل وليدي لداركم شعل فيه الضوء وقرا الفاتحة على روح بوك وأمك وتذكرهم بالرحمة شوية. واتصل بأختك يا صالح. راهي هي ربتك، راهي تقول صالح ولدي موش خويا باش يجي ويتصل خالتي زهرة تَوَ تشوفي. ربي معاك وليدي ويهديك. بالسلامة.

هل يتحمل الإنسان أن يتلقى هذا الكم الهائل من أحداث ومصائب في يوم واحد؟ ماذا ينتظرني أيضا في هذا اليوم الأغبر؟ فجأة بدون سابق إنذار كالإعصار. من أنا؟ هل أنا صحيح ابن عمار العطار؟ صاحب هذه الدار الرجل الذي كان يحلف متساكنو الحومة بحياته.

أتساءل: ماذا فعلت عائلتي حتى أجافيها كل هذا الجفاء؟ هل صدقت كلام ألفة؟ أم جاء على الوتر الذي يعجبني وأبحث عنه؟

– سبحان الله إلي يشوفك يقول ماكش خوهم ما يشبهوك في شيء. أُخزر لروحك تبارك الله زين وعين ووهرة. أختك تقول عليها حاشا خليقة الرحمان عبيثة. أما خوك الطاهر لا... لا... عاد مايجيش أستاذ تقول عليه حماص خضار هو والحطة عايشين بالقدر.

– أنت حُبي وهرة في كل شَي زين وعين وقد.

هذا المديح المسموم اللذيذ. ظل ينفخ في غروري وأنا ارتفع مبتعدا عن جذوري كالبالون، بعيدا بعيدا، كل سنة تزداد المسافة بُعدا. حتى عزلت نفسي. لم تكن ألفة السبب أكيد. أنا كنت أبحث عمن يُعطيني غطاءً، مبرر لما أفعل. عزلت نفسي وابتعدت عن كل من يحبني. أختي فتحية منبع الحنان كل ذلك نسيته رميته وراء ظهري.

أخي الطاهر لم أسمع منه كلمة سوء طوال حياتي. ماذا فعل لي؟ لماذا جافيته كل هذا الجفاء؟

نعم ربما كنت مسافرا عندما مات حَمّه صهري. قد يكون الأمر كذلك فأنا كثير السفر. وهذا لا يعني ولا يبرر أنني لم أقل لهم في

الوزارة ولِحراس المنزل إذا سأل عني أحد حتى أخي وأكدت على ذلك أن يقولوا له إنني مسافر.

– لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟

– أي شيطان يسيطر على تصرفاتنا في أوقات كتلك؟

– ماذا نظن أنفسنا؟

ماذا سيحدث لو توقفنا لحظة؟ للسلام على صديق كان إلى وقت قريب يشاركنا كل جل تفاصيل حياتنا؟ ماذا لو توقفنا لحظة؟ لنعطي لأنفسنا فرصة تأمل.

الفصل 3

الفخ اللذيذ

«المرأة فخ نصبته الطبيعة»

نيتشه

دخلت المنزل الذي احتضن طفولتي وأحلامي. اللون نفسه، الأزرق والأبيض. الباحة نفسها المكسوة بالجليز الأبيض والأسود. تتوسطها شجرة الليمون بحوضها المملوء بنبات النعناع. البهو محاط بالغرف. غرفة «المونة» هنا كنت أختبئ لأدخن أول ما ابتُليت شرب السجائر. غرفة أبي وأمي لازالت صامدة بكل محتوياتها، بسريرها ودولابها لم يتغير لونهما كما هما. حافظت فتحية على كل محتويات الغرفة للذكرى. لكن أين أبي؟ أين أمي؟ أين صوتهما؟ أين هما؟ ما أكثر غرورك أيها الإنسان وأنت تعلم أن الحياة أقصر بكثير مما تظن.

غرفتي أنا وأخي من لونها الوردي وبقايا محتوياتها، أكاد أجزم أنها أصبحت غرفة مَروى. غرفة الضيوف ثم المطبخ وبجانبه بيت

الراحة والدش. بعدها شجرة الياسمين التي تُرافق الدرج الذي يحملك إلى الغرف العلوية الثلاث حيث تتدلى شجرة الياسمين وشجرة العنب بشكل متناسق يُعطيها في الصيف جمالا ورائحة تنعش الأنفاس. تُضفي على جلسات الأصيل الممتدة حتى الليل رونقا وجمالا آخر. هنا كنا نشرب الشاي، هنا كنا نتعشى أيضا، أبي بجبته متكئا وسبحته البيضاء تتدلى حباتها من بين أصابعه وكأس الشاي في اليد الأخرى.

تحت شجرة الليمون نصبت لي أيضا ألفة فخاخها. هنا رأيتها أول مرة، جالسة على كرسيٍ صغير. بلباسها الوردي الشفاف، شعرها الطويل يغطي جزءا كبيرا من ملامح وجهها وهي منكبة على تعلم الطريزة. كانت أميرة خرجت للتو من إحدى قصص ألف ليلة وليلة. تتعلم الطريزة على يد فتحية، مُعللة ذلك أن البنت مهما درست تبقى مُلزمة بتعلم شؤون المنزل من طريزة وفن الطبخ... وبما أن أمي محرزية وأختي فتحية مشهورتان ببراعتهما في هذا المجال فقد قررت أن تتلمذ على يديهما.

– ق... معيز...

لأدري لماذا ظلت صورتها ونظرتها لي عالقة في ذاكرتي ذلك اليوم؟ لماذا سحرتني تلك النظرة التي تقول: أنا انتظرك أنت لتنقذني، أنا أحتاجك، نعم نظرتها كانت تقول هذا بالضبط.

– لماذا لم أقاوم ذلك الإحساس؟ بأنني أعرفها منذ وقت طويل، لماذا بدا لي صوتها لحظتئذ مألوفا؟

اتجه مباشرة إلى داخلي ليُحرك فيه شيئاً لم أكن أعرفه من قبل. هذا الإحساس الذي طردته بقوة أول الأمر ليعود من النافذة ويُقنعني بمغامرة أروي فيها عطشي فحسب. أو هكذا بررت رغبتي في لقائها، وبعد ذلك استسلمت. بل أعطيتها مِقود حياتي توجهه حيث تشاء. في مدة صغيرة صارت كل شيء في حياتي، مستعد أن أحارب العالم من أجلها حتى تواضع عائلتها وفقرها تغاضيت عنه.

– ق..ب معيز انطلى علي.

في تلك اللحظة أمام شجرة الليمون بعد أكثر من عشرين سنة. استحضرت قصة ألفة عندما روتها لتؤكد لي أن كل ما فعلته كان من أجلي وأنها أحبتني من النظرة الأولى.

أبي رجل عسكري. كنا نسكن قرية «نفزة» ضاحية مدينة باجة. أنا البنت الكبرى لأختين. بعد نجاحي في الباكالوريا وأمام رغبتي في إتمام دراستي. رفض أبي ولوجي المساكن الجامعية خوفا عليّ. قرر حينها الانتقال إلى تونس والاستقرار فيها لأتمكن من متابعة دراستي الجامعية تحت ناظريهما.

استأجرنا منزلا صغيرا في حي النخيل في الدندان. حيث المسافة إلى كلية تسعة أفريل غير بعيدة. عندما رأيتك أول مرة تحرك إحساس بداخلي كأنه بركان، لم أستطع طرد طيف صورتك والتخلص منها رغم محاولتي ذلك. قلت: هذا الرجل لي.

إنه فارس أحلامي. استقصيت عن أخبارك لم يكن الأمر صعبا عرفت عن طريق أختك مواعيد زيارتك للعائلة رغم أنها قصيرة وغير منتظمة لطبيعة عملك كإطار أمني. لازمت أختك فتحية

كالظل. متعللة برغبتي في تعلم الطريزة. في منزلكم صرت أعتني أحيانا بأمك المريضة كما أساعد فتحية في شؤون المنزل. وأنت لم تظهر بعد.

طال غيابك هذه المرة أكثر من المعتاد. وطال إصراري أيضا، لم يكن عندي ما أفعله في منزلنا بل بالعكس كان الجو في منزلكم يُوحي لي أنني في سفر يومي إلى الأندلس. كل شئ فيه يبعث على الراحة والطمأنينة، لن أخسر سأنتظرك هنا مهما طال غيابك، أكيد ستظهر يوما ما.

كل ما كان يُقلقني أن تظهر وأنا غير موجودة. أخوك الطاهر يأتي كل يوم لا يمكن أن يمر يوم دون أن تراه هرعا إلى أمك. مُقبلا يديها ورأسها سائلا عن أحوالها كأنه لم يرها منذ وقت طويل. اللهفة نفسها كل يوم حتى خُيل إليّ أنه ربما به مَس من الجنون. لم يهتم بي البتة. سلامه يكون خافتا يكاد لا يُسمع، لم ينظر إليَ أبدا، ولم يُكلف نفسه عناء سؤالي.

يوم الجمعة يختلف الأمر تماما يحضر هو وزوجته وبناته بلباسه التقليدي يبدو غير مألوف نشيط. زوجته أيضا تُشبهه في طباعه إلى حد كبير رغم أنها امرأة، لم تفتح معي حوارا مطولا، أسئلة عادية وإجابات مُقتضبة. هذا لم يشجعني قط، بِت أتفادى المجيء إلى منزلكم يوم الجمعة وكان كل خوفي أن تأتي أنت في ذلك اليوم. لكنني عرفت فيما بعد أنك الآخر تتفادى الحضور باعتبار أن أمك تُريدك أن تتزوج أخت زوجة أخيك. هذا سبب ثان كاف ليدخلا في

خانة الأعداء. المشكلة أن فتحية هي الأخرى تُؤيد ذلك الاقتراح وهي تشكر وتمجد أخت زوجة أخيك.

- ريت مرة الطاهر خويا مزيانة ومتربية صحيح. أختها أزين منها وصلت الباك بوها مخلهاش تكمل. مش نرمال الطفلة تقتل بالزين ومتربية مانيش فاهمة علاش يلوج خويا صالح ربي يهديه.

عندما تبدأ أختك حصة الغزل في غريمتي أتمنى لو أسكتها بصفعة، بشئ آخر. لكنني لا أملك أن أفعل شيئاً بل أكون مضطرة أن أسمع وأوافق على كل كلمة تمجيد تقولها.

سألت مرة فتحية بخبث من أعياه الانتظار:

- الطاهر يجي كل يوم. شبيه صالح خوك؟

- صالح الدلال، إنه أخي المدلل. كان الكل يدلل فيه أبي أمي أخي الطاهر أنا. لذلك كَبُر مستهتراً أنانياً. ورغم ذلك يبقى هو الفرحة بكل ما تحمل الكلمة من معنى أينما حل يَحُل معه الفرح والسرور، مجيئه عيد.

- يعنق، يبوس، يشطح، تغيب الحدود والرسميات، في جلسته كل شيء مباح، الحاصيلو معاه. الجو والضحك والتفرهيد.

أما أخي الطاهر نرى فيه أبونا ونتعامل معه كما يتعامل الابن مع أبوه، لا نتجاوز الحدود المسموح بها أبدا حتى عندما كان أبي حياً. أخي صالح بِدوره لا يجرؤ أن يُجادل أو يرفع صوته أمام أخي الطاهر أبدا. إن حدث وغضب منه وهذا يحدث كثيرا لعدم تحمل أخي صالح لنصائح أخي الطاهر وتوجيهاته التي تصل في أحيان كثيرة إلى الانتقاد اللاذع. ينتظر حتى يخرج ويبدأ في تقليده

والسخرية منه بشكل يثير ضحكنا إلى أبعد الحدود، أمي نفسها تضحك. مُكملا حديثه دائما:

- أمي بالله ولدك ياسر عاقدها وعامل فيها كبير ومبادئ، بالله أمي قولو يفك شوية بالرسمي نحكي، مساطت العيشة معاه راهو. أبي كان راضيا أشد الرضا على أخي الطاهر.

- وصالح شبيه؟

- صالح عاد قْرَيْدْ العش. حتى بابا الله يرحمو كان يقول نخاف يفسدوا كان دلالي ليه. أما دلال المخلوقة الأخرى يقصد أمي فات الحدود. ويعيد سرد الرواية نفسها التي تدعم كلامه للمرة الألف ربما.

تعرفوا أمكم عمرها ما مدت يدها لجيبي إلا على خاطر صالح نهارها هبلت خرجت من حبال عقلي.

- يا مرا بعد هاذ العمر كلو تسرقيني؟

- ياراجل صلي على النبي والله ما صار غير صالح استحق شوية فلوس وحشم منك هزيتهم أنا ونسيت ماقتلكش.

- وفاش استحقهم سي صالح هذا الفلوس لالة مايخو في مصروفو مني وأكثر.

- مَاو مَكْبُوب السعد عندو جماعة صحابو لاباس بيهم، باش يمشو للحمامات يسهروا، بدا يشكي أمي أمانك ماتخليهاش بي، أمانك، سخفني ما نجمتش نكسر بخاطرو. مانجمش نخلي ولدي مقهور بين ندادو وصار لي صار.

- ياخي منين خرج لي هذا؟ ما جاني وغنى لي نفس الأغنية وعطيتو خمس ألاف كاملة. آش يعمل بالفلوس هذا يطلعشي يسكر الكلب؟

- صلي على النبي يا راجل الولد مازال صغير تَو يكبر ويعمل عقلو والزمان تبدل. آش باش تعمل خمسة آلاف يا عمار؟

- صُغر العنابي مازال صغير. الله يرضي عليك يا الطاهر وليدي ويكمل عليك بعقلك، أما أنت وليدي صالح ربي يهديك ويبعد عليك ولاد الحرام.

ويخرج محوقلا. لا حول ولا قوة إلا بالله.

مع مرور الأيام تكونت عندي صورة كافية عنك. لا تتصور مدى سعادتي واستمتاعي عندما يتعلق ويدور الحديث عنك. صِرت أعرف. ماذا تريد؟ وكيف تحب أن تعيش؟ صاحب طموح جارف لا يؤمن بالحدود كما تصورتك تماما. زاد إصراري ورِهاني عليك. هذا الرجل الذي أبحث عنه ليكون زوجي.

وأخيرا ظهرت في عصر ذلك اليوم. كان يوم خميس من شهر جويلية. أتذكر؟ كنتَ ترتدي قميصا أزرق وسروال جينز منتعلا حذاءً رياضيا أبيض. حليق الرأس بشكل كامل تُغطيه بقبعة زرقاء. زادتك بهاء على بهاء. عندما نزعت نظاراتك الشمسية لتلقي نظرة عليَ، بل لتتفحصني. عشقتك أكثر. بل ليلتها تخيلت وحلمت أنني أضاجعك استمتعت بالأمر حتى خلته حقيقة.

ارتبكت لم أدري. ماذا أفعل؟ ظهر الارتباك عليَ، كنت أتعلم الطريزة مع فتحية تحت شجرة الليمون. قبلتها قُبلة العاشق لعشيقته

وليس قبلة الأخ لأخته. صدقت فتحية تأتي وتأتي الفرحة معك. سألتها بكل تلقائية:

- شكون هذه؟

- بنت جيراننا. سكنوا هنا جدد، كاريين، نعلمها في الطريزة، رد بالك راهي بنت جامعة.

- آبب مازال بنات الجامعة يتعلمن الطريزة والله حاجة باهية برشة.

- ويني أمي؟

- هاهي في بيتها لايثة بالسخانة.

- إيه فكرتني غدوة الحي باش نبعث ليكم ثلاث مراوح.

دخلت إلى غرفه أمك وتبعتك فتحية وأنت تصيح مناديا إياها باسمها:

- يامحرزية قومي يزي من الدلال.

في حين ارتبكت أنا. ماذا سأفعل؟ هل أغادر أو أنتظر؟ اللياقة تقتضي أن أنصرف، لم أفكر طويلا أسبوعان من الانتظار أضيعهما من أجل برتوكول فارغ. اللياقة، فلتذهب إلى الجحيم إذن.

أنقذني دخول رجل فضولي يحمل مجموعة من الأغراض ظن بادئ الأمر أنني من أهل البيت. يعطيني الأغراض محاولا إثارة إعجابي. وأنا أقوم بترتيبها.

لم تلبثوا في الداخل كثيرا وخرجتم. أسرعت فتحية لمساعدتي.

- يا شومي والله نسيت دوختني صالح الله يهديك. حشومة الطفلة ضيفة زح.

كان هذا كافيا ليُلفت انتباهك مرة أخرى. حَركت شعري بطريقة جعلتُها تبدو عفوية، لأزيد من امتصاص نظراتك أكثر. وأضافت أمك شاكرة مساعدتي:

- الله يرحم والدين البنية هذه يا صالح، تعرف. نسمة وبعثها لي ربي، تعرف البارح شدتني وجيعة الروماتيزم سخنت الزيت ودلكتني وغلفتني، يدها تقول طبيبة اللهم صلي ع النبي، ليلتها رقدت اشنو باش نقولك مرتاحة واندعي عليها بالخير ربي يعطيها ما تتمنى ويرزقها بولد الحلال.

- أمانك أمي معناها أنا مانش لاهية يبك.

- لا يا بنيتي أنت تدعي عليك عروقي. ربي يحلها في وجهك ويفرحني بيك قبل ما نموت ونخلط على المرحوم.

اطمأن وجه فتحية مُنما عن رضا تام، واطمأن وجهي أيضا كأننا في سباق لنحظى برضا الباشا. أنت حبيبي، ولأن ما قالته أمك أعطى مفعوله بشكل فوري أردفت أنت قائلا:

- ماكنتش نعرف باش نلقاها عندكم راني جبت ليها حاجة أما عطوها حاجة تعجبها.

- لا لا لا والله ما صار الحاجة كي أمي وما عملت شيء.

أصررت أنت وأمك وأختك وأصررت أنا قائلة وأظنك فهمت والتقطت الرسالة:

- المرة هذه حلفت والمرة الجاية كتجي. إن شاء الله توا ناخذو وعد.

- المرة الجاية توا نجيب لك على ذوقي ليك أنت بالذات حاجة تعجبك.

هذا ما كنت أريده وأبحث عنه أردفت قائلة.

- تبارك الله ذوقك ظاهر.

حاولت أن أحمل كلماتي واشحنها أكثر ما يمكن من الغنج والدلال الخفيف.

- خويا صالح كلو ضخامات وذوق. ربي يفضلوا لينا وهي تحيطك بذراعها وتقبلك في وجنتيك.

لحظتها حسدتها. لست أدري لماذا؟ ربما لأنه ليس لدي أخ، أو لم أتعود أن أرى مثل هذا التعامل الحميمي في عائلتنا. حينها قررت أن أكرهها لا يمكن أن أدع أحد يُشاركني فيك. ستكون لي وحدي أنا.

لم تمكث طويلا، لم تستغرق زيارتك أكثر من نصف ساعة. بعد خروجك قالت أمك لفتحية:

- شوف أجاب خوك وخلي للطاهر ومرتو حاجة.

- استغربت رد أختك.

- زايد يا أمي ما أحناش باش نوفاو من هذا الموال، ماهوش باش يخو حاجة لواه التعب كل مرة هكا ياخي ما تعرفش ولدك معقد.

- اسكت وأحشم ما أطول لسانك ما تحكيش على خوك هكا إحنا نعطوه باش يعرف لي نخمموا فيه ماحبش هذيك أمورو.

– يا أمي ياخي لواه تذكر كفطر بحذانا وهو يأكل قلتلو والله هايل اللحم لي بعثوا صالح قام كي الملسوع وهو يرد.

– اسكت ما أطول لسانك الطفلة بحذانا. أش باش تقول علينا؟ ما قل حياك وماقل تربيتك.

لم يكن الوضع يغري بالجلوس أكثر وبدت الفرصة مناسبة لأتخلص من درس الطريزة اللعين مبكرا ذاك اليوم.

مَشَيتُ وأنا أطير فرحا. عرفت إنك ستعود مبكرا هذه المرة. بل ستعود من أجلي أنا فقط. كل شيء فيك يقول ذلك. نظراتك، لمستك ليدي وأنت تُسلم عليَ مغادرا، جعلتني شبه متأكدة أنني لمست شيئا داخلك، كما لمست أنت بل عبثت أنت بكل جوارحي. فعلا. عُدت أسرع من المتوقع، عدت لتُنقذني من تعلم الطريزة المملة. التي أكرهها حتى النخاع ولكن لم يكن بد من تحملها وتحمل ملاحظات فتحية التي تستمتع بتعليمي والتهكم عليّ.

– راسك رزين ياخي مثبتة أنت تقري في الجامعة هههههههههه؟

شَكّل مجيئك المبكر مُنعطفا آخر في علاقتي مع عائلتك. جعلهم يتفطنون لما غاب عنهم في اللقاء الأول، جعلهم يعرفون أن هذه المرة عُدت من أجلي فقط. نظرات فتحية للعلبة المغلفة بعناية فائقة في كيس أنيق. كانت كافية لِتُوقظ حواسها للذي فاتها. أعلنت الحرب مباشرة كأنها لُسعت وأُخذت على حين غرة ومن حيث لا تعلم.

لكن بعد فوات الآوان.

طرت فرحاً، رقصاً... لم أعبأ بنظرات فتحية التي أرادت أن تقتلني تطردني لم تستطع أن تخفي غيرتها، منذ ذاك اليوم تغيرت طريقة تعاملها معي. أصبح يسودها الجفاف بل مليئة بالتهكم والاستهزاء.

- هيا صالح حاجتي بيك كملنا اليوم ألفة ظاهرلي ماتحبش تتعلم الطريزة كنت تلوج على حاجة أخرى. تصبح على خير.

كان طردا غير مباشر. لكنني لم أعبأ به لأنني كنت متأكدة أنني سأجد داخل العلبة الطريق إليك هذه المرة دون مساعدة فتحية.

رسالتك، رقم هاتف منزلك، قارورة العطر الباريسي الذي لم يسبق لي أن شممته (شَانيل) كافية لتجعل حُلمي أقرب إلى الحقيقة. كافية لتؤجل تهكم أمي. كانت كافية لتفتح لي نافذة في عالم الأحلام.

«أتمنى أن تعجبك الهدية رغم أنّكِ تستحقين أكثر وأجمل. هذا رقم هاتف شقتي... لا ترددي بالاتصال إن احتجت أي شيء. أنت فتاة جميلة ورائعة تثرين الإعجاب فعلا».

تحياتي. المُعجب صالح

عندما أتذكر أنا صالح ذلك. أتساءل: هل كنت جادا عندما بعثت لها بتلك الهدية؟ أبدا مجرد فتاة جميلة لمغامرة جديدة التقطت إشارتها وقررت أن أرسل لها رسالة، هذا كل ما خطر ببالي لحظتها أو ربما هذا ما أقنعت به نفسي مبررا الاتصال بها.

- هل ستتصل؟

هل فكرت فيها للحظة كزوجة؟ لم أكن أفكر في الزواج في تلك الأيام. لكن ما حدث بعد ذلك غير وقلب كل الموازين والبرامج غَيّر مجرى حياتي. إصرارها ومعرفتها ما تريد. كانا أقوى من حياة وطريقة التفكير العبثية التي كنت أعيشها.

الفصل 4

الحُلم الرضيع المقتول

«كيف يمكن أن تشن حربا على الإرهاب
فيما الحرب بحد ذاته إرهاب؟»
هوارد زين

أيقظني من سرحاني. رنة الهاتف الخاص بغرفة العمليات. أسرعت مُهرولا إلى السيارة. باعتبار الخط خط طوارئ، لا يَرِن إلا لمصيبة كبيرة حلت. فتحت هاتف السيارة كان هو على الخط، «القرد».

- يا صالح.

- يا أخي وينك؟

- ارجع توا للوزارة. الدنيا مقلوبة.

- خير إن شاء الله لاباس؟

- ارجع توا، لغرفة العمليات. توا، توا.

حادثة واد الليل.

في الطريق انتزعت ألفة من عقلي وانتزعته هو أيضا. ماذا حدث؟ كارثة أخرى؟ سترك يا رب. أدرت مذياع السيارة على تردد كل الإذاعات. فتلك الأيام بعد ما يمكن أن نُسميه ثورة. قد يُفاجئك إعلامنا. أنت الموجود في أعلى درجات السلطة وداخل مطبخها. بأخبار لم تعلم أنت بها قط. أو لازالت طي الكتمان. الاختراق بلغ مداه في كل شيء. وسَجّل على حرية التعبير.

لا شيء يثير الانتباه. الأغاني تنساب بشكل عادي في جل المحطات. لا شئ يوحي بوقوع ما أخشاه اغتيال، انفجار... ماذا وقع إذن؟

كانت التاسعة مساءً عندما دخلت أهرول إلى قاعة العمليات. قاعة من طراز رفيع بمواصفات القرن الحادي والعشرين، طاولة مستديرة بكراسي متحركة وثيرة أمام كل كرسي لوحة ذكية مغروسة في الطاولة، ميكرفون. تتسع القاعة لأكثر من خمسين شخصا. أجهزة اتصال على أعلى مستوى من التطور والدقة، توفر اتصالات آمنة إلى جميع أقطار العالم. شاشة عملاقة ذكية مرتبطة بأحدث التقنيات «لجوجل أورث» تجعلك قادراً على مراقبة أي بقعة من تراب الجمهورية بشكل مباشر وواضح بالإضافة إلى ارتباطها بمكاتب غاية في التجهيز تعمل على مدار اليوم دون انقطاع.

كانت أغلب الوجوه حاضرة ومتحفزة. حتى من انتُزعوا من جلسات خمرية يدفعون عنهم أثار السكر بشكل قوي وحازم.

- ماذا جرى؟

أجابني «القرد»

- مجموعة إرهابية متحصنة في منزل في منطقة واد الليل قتلوا منذ قليل عون أمن.

- تابع لشكون؟

- لشكون حسب رأيك للكولونيل سي محمد كي العادة.

- وينو هو؟

- اهو جاي في الطريق.

- ربي ستر كان سيقتحم عليهم المنزل بزوج أعوان فقط. عند الباب أطلقوا النار قتلوا عون وتراجع الآخر. المكان محاصر، طلبت منه المجيء وما يعمل شيء، كل شيء تحت السيطرة الآن.

- أما ظاهر الإعلام خذا خبار وبدأت الحضبة.

دخل الكولونيل محمد متجهم الوجه، غاضب، يتطاير الشرر من عينه. رجل في الثامنة والأربعين من عمره حليق الرأس دائما، لا ينزع بدلة الشرطة السوداء الخاصة بفرقة التدخل السريع أبدا، حتى الاجتماعات يحضرها بزي العمل كأنه في حالة استنفار دائم. جسد رياضي. فرض احترامه وتقديره في الوزارة باعتباره رجل ميدان من الطراز الرفيع ورجل المهمات الصعبة.

يسكن في منزل متواضع تابع للوكالة العقارية للسكنى في مدينة المرناقية. جار وصديق أخي الطاهر. لا يشرب الخمر، لا يدخن. مُداوم على الرياضة والعمل بشكل مُلفت لا يكل ولا يمل.

من الذين أجهروا بتدينهم منذ وقت طويل حتى في عهد الجنرال. لا يرقى إليه الشك أبدا، رجل وطني بأتم معنى الكلمة. لا يقبل الهدايا ولا التدخلات وإن حدث وتدخل لأحد وهذا نادر ويعد على أطراف الأصابع. فكنا على يقين أن المتدخل لصالحه سيكون فقيرا مظلوما. ولا نملك إلا أن نتجاوب مع تدخله، الكل يحترمه من يحبه ومن يكرهه. ما إن أخد مكانه حتى بدأ يتكلم بهدوء لا يتماشى مع الغضب الذي هو عليه.

- نحب نعرف شكون لي ما خلانيش نستعمل التشويش على الاتصال في المنطقة المحاصرة؟

أجبته.

- سي محمد السلام عليكم.

- بالله سامحوني يا جماعة السلام عليكم راو مش معقول كل مرة نشوف واحد من ولادي ورجالي ميت بحذايا مش معقول كنت مسيطر على الوضع. علاش هكا علاش؟

كان يغالب البكاء. بدا شديد التأثر على العون الفقيد.

أردفت.

- بشوية سي محمد مش هكا الخدمة اشرب كاس ماء ولازم تعرف باللي مجموعين هنا كلهم متأثرين على فقدان واحد من ولادنا، وكلنا مانحبوش تتمس شعرة منهم. أما الله غالب هذي خدمتنا وإحنا عارفين بْلّي الضحايا باش يكونو منا أحنا الأولين وأن البلاد هذي نحموها بدمنا. فعل مش كلام كل مرة تثبتوا الشيء هذا ولله الحمد.

– توا نسمعو فيك سي محمد. تفضل.

– أعتقد أن الجميع يعرف أننا في حالة استنفار قصوى وأننا في حالة تتبع مستمر لمجموعة من الأطراف والتحركات المشتبه فيهم باحتمال علاقتهم بالإرهاب. في الأيام الأخيرة لفت انتباهنا تحرك مريب لأحد المتتبعين حيث يقطن في منزل مع ثلاث نساء علاقتهم غير واضحة.

عند الاستقصاء عنهم اكتشفنا أن لا صلة قرابة تجمعهم أبدا، رغم أن لواحدة منهم رضيع ربما للإيهام أنها زوجة أحدهم. بالإضافة إلى كون معلوم كراء المنزل أكثر بكثير من قيمته الحقيقية.

هنا تحولت الشكوك إلى حقيقة. قُمنا بإبلاغ قاعة العمليات وبأخذ إذن قضائي لتكثيف المراقبة والاقتحام إن لزم الأمر. حيث أسفرت المراقبة إلى التأكد بما لا يدع مجالا للشك بأن المكان مخزن للأسلحة.

حاصرنا المنزل قُمنا بتأمين محيط المنزل بخمسمائة متر من جميع الجهات. طالبا من المشتبه فيهم الاستسلام. كانت عملية استباقية سرية كعشرات العمليات التي قمنا بها ونجحت بالطريقة نفسها. في البداية أبدى المشتبه به استعداده للاستسلام شريطة ألا نقتله. كان مرعوبا، خائفا، يصيح بتشنج واضح.

– أمانكم متقتلونيش. خاطيني خاطيني.

عندما كنت أحاوره عبر الهاتف كنت أسمع الفتاتان تقولان له إن هناك من يكلمه على الهاتف الآخر.

وهو يجيبهما بكلام بذيء طالبا منهما السكوت.

عندها طلبت من غرفة العمليات الإذن باستعمال مشوش الاتصالات لكن قوبل طلبي بالرفض التام. قالوا لي:

- مانجموش.

اتصلت بغرفة العمليات. جاءني الرد.

- تصرف وفق ما يقتضيه الظرف.

عاودت الاتصال بالمشتبه به. تغيرت نبرة كلامه هذه المرة. أبدى استعداده للاستسلام مهددا بنسف الحي كله إن هو اشتم رائحة خيانة.

تطوع عونان من خيرة رجالي لاقتحام المنزل. فتح المشتبه فيه الباب وأطلق النار. أردى أحد أعواننا البواسل، بينما استطاع الثاني التراجع وحصل ما حصل.

وبعد ذلك طُلب مني ترك الوضع على ما هو عليه والعودة إلى غرفة العمليات. وها أنا معكم الآن.

- بارك الله وفيك سي محمد أعتقد أن الجميع سمع وفهم كلامك وبعد إذن السيد المدير العام أريد أن أوضح.

- تفضل سي صالح تفضل. أجاب «القرد».

- أنت سي محمد رجل ميدان وربما حماسك ووطنيتك يغلبون على طبعك ونحن نعرف ذلك ونقدره. تتساءل لماذا لم نشوش على الاتصال في المنطقة المحاصرة؟ لأن هنا فريق كامل يتابع بأدق التفاصيل وبحرفية عالية أي اتصال بين المشتبه والأطراف

التي يعمل لصالحها. ونحن ندرك تمام الإدراك أن المشتبه لن يوصلنا لأي شيء ولا يملك من المعلومات ما يوصلنا لما نريد. حتى وإن تم القبض عليه حياً.

نعرف كما تعرف أنت أن هذا التنظيم الذي نحارب فيه تمتد جذوره إلى خارج تونس وربما ينسق مع أجهزة استخباراتية أخرى غاية في التنظيم والدقة. ولا يخفى على الجميع أن هناك مجموعة من الدول تقف وتدعم هذه التنظيمات.

وما يجري في دول ما يُسمى الربيع العربي أكبر دليل على ذلك. وما يحدث في تونس ليس في منأى عما يحدث في العالم. هذا التنظيم الفيروسي استطاع أن يدك أكثر الدول قوة وجاهزية. لا علينا. ما حدث سي محمد أنه كانت ستقع كارثة بأتم معنى الكلمة لو خرج معك المشتبه مستسلما. لولا تدخل السيد المدير شخصيا مشكورا في الوقت المناسب. بطلبه منك ترك الوضع على ما هو عليه. نعرف أن درجة تأمينك للمكان كانت على مستوى خمسمائة متر تقريبا على محيط المنزل، ونعرف أنك لا تستطيع أكثر من ذلك. كما نعرف وتعرف أنت بخبرتك أن هذا التنظيم لا يمكن أن يترك مخزن أسلحة هكذا من غير مراقبة على مستوى ثاني وثالث ورابع بمجموعات منفصلة عن بعضها لا يعرف بعضها بعضاً. وعلى أبعاد متعددة وخطة للطوارئ.

كما نعرف كُلنا القاعدة الصارمة عند هذا التنظيم، وهذا ما يُفسر استغاثة المشتبه فيه وخوفه من الموت، لأنه عرف أن مصيره كذلك

بعد أن أصبح ورقة مكشوفة. بعد هذا. أتعتقد أنهم سيتركونك تقبض عليه حياً؟ مستحيل.

كان سيكون هناك حمام دم قنبلة تقتل أكثر عدد من الأمنيين وربما المدنيين. وهذا ما يريدونه ويستدرجوننا إليه. البلاد لا تحتمل في الظرف الراهن بعد ما مَرّ من اغتيالات وحوادث كارثة أخرى بهذا الحجم.

ناهيك عن الإعلام الأجنبي الذي يتربص بنا. هناك من يريد أن يُصَدّر ما يسمى بالربيع العربي. وهناك من يريد أن يُفشله ويجعل له صورة مقترنة بالدمار والقتل. إن ما نحن فيه الآن من أمن مقارنة بدول ما يسمى الربيع العربي. هو نعيم، وما حققناه لم يتأت هكذا. بل نتيجة لحكمة وتبصر وحرفية في التعامل مع قضايا حساسة كالتي بين أيدينا الآن.

هناك من يريد أن نتصرف بما يُمليه علينا الحس الوطني دون التفكير في العواقب. أما نحن هنا ننظر إلى الصورة بشكل كامل ومن أوجه متعددة وفي حرص كبير على سلامة البلاد والخروج بها من هذه البوتقة بأقل الأضرار الممكنة.

- شكرا سي صالح على التوضيح أنا أعرف أن ما قلته فيه الكثير من الصواب والمنطق. لكن لازلت شبه متأكد. أنه لازال باستطاعتنا أن نقوم بأشياء أكثر فاعلية وأكثر استباقية لتحصين بلادنا من هذه الآفة. نحن نملك كل مقومات النجاح قبل أن أخرج وأنا أعرف أن وجودي لم يعد له مبرر.

كلمة أخيرة أُريح بها ضميري، أ لسنا متأكدين بأن هناك علاقة وطيدة بين الإرهاب والتهريب؟ وإلا بماذا تفسر الكم الهائل من السلاح الذي نجده ونصادره؟ إذا كان مُعداً للقيام بعمليات في الداخل فهذه كارثة كبرى وما ينتظرنا مخيف بل لسنا بعيدين كل البعد عن سيناريو بقية دول الربيع العربي. هذا يستوجب جاهزية على قدر عال من الكفاءة.

أما إذا كان مُعدا للتهريب وتونس لا تعدو أن تكون محطة عبور فهذا يطرح سؤال. ماذا سيحصل لو ضل الطريق؟ ووقع في أياد مُتطرفة باعتبار أن المهرب لا يهمه إلا الربح المادي؟

ما ينتظرنا أيضا مخيف. نموذج هذه العملية كما وضح سي صالح مقنع إلى حد ما. أما غير المقنع إذا كنا لا نملك القوة والجاهزية للتواجه مع الإرهاب خوفا من أن يستدرجنا إلى حمام دم. فلماذا لا نجتث منابع التهريب إذن؟ ألم نقم بعملية اجتثاث من قبل؟ كلنا نذكر ذلك. اعتقلنا، حاكمنا، وعذبنا أناسا باعتبار أن اجتماعاتهم تشكل خطرا على النظام العام. لماذا نقف متفرجين عندما يتعلق الأمر بالتهريب؟ ونحن نعرف أنهم يدمرون البلاد يوما بعد يوم، ليس بتفكيرهم هذه المرة بل بأفعالهم. كل شيء متوفر، مسالك التهريب نعرفها، مخازن المهربين نعرفها بل نعرف كبار المهربين أنفسهم ولا أحد من الحاضرين يستطيع إنكار ذلك.

أسواق المهربين محمية من قبل رجال الشرطة. ماذا يسمى هذا؟ دائما الجواب نفسه، لم يحن الوقت بعد. الإرهاب بأنواعه لم يقتل رجال الشرطة الأوفياء فقط. بل قتل الصناعة والتجارة... كل

شيء يموت يوما بعد يوم، كل ما هو وطني. حررونا، أعطونا الضوء الأخضر، نحتاج إلى قرار سياسي جريء.

في هذه الوزارة رجال مستعدون للموت من أجل هذا الوطن، ليسوا مستعدين للموت. بل يموتون من أجل هذا الوطن الغالي كل يوم. الشاشة التي أمامنا في هذه القاعة. ألم تكلف الوزارة ألاف الدولارات؟ ألم تكن الغاية منها القضاء على الفساد؟ عبر مراقبة كل نقاط ومعابر التهريب والتجاوزات الإدارية.

ألا تمكننا من مراقبة كل شبر من أرجاء الجمهورية على مدار اليوم؟ ندفع كل سنة لشركة» جوجل» ملايين الدولارات لنشاهد فيها مباريات كرة القدم أو نحرس منازلنا الفخمة عن بعد. أعتذر عن الإطالة. عاشت تونس حرة حرة، شكرا على استماعكم وسعة صدركم والسلام.

ظل الصمت سائدا في القاعة لأكثر من ثلاثين ثانية بعد خروج الكولونيل محمد. لن أقول كان ذلك نتيجة لتأثرنا بكلامه. فينا من لم يكن يسمعه قط وفينا من كان يعتبر كلامه مجرد ثرثرة بل وقاحة يجب أن يُوضع لها حد. لا يمكننا أن ننكر أنه لامس جانبا كبيرا من الصواب وأن هناك أيضا من مِنّا في تلك القاعة يؤيد كل ما قاله. لكن في صمت لا يستطيع أن يُجاهر به أبدا أبدا.

قطع «القرد» الصمت بقوله.

– هيا يا جماعة أعطونا صورة الوضع. خرجنا برشة على الموضوع. وأعطونا احتمالات التدخل واحتمالات التطورات الممكنة.

قام سي... من مكانه متجهاً صوب الشاشة، حيث كنا نراقب عبر بث مباشر المنزل المحاصر. أكد سي... إن الوضع تحت السيطرة. رغم وجود وسائل إعلام كثيرة أمام المنزل تُعيق عمل المجموعات الأمنية المحاصرة له. ومع ذلك فقد عمدت الإدارة إلى الاستفادة من هذا التواجد الإعلامي لصالحها.

حيث سيوضح للرأي العام المجهودات التي تقوم بها الوزارة للحفاظ على الأمن العام. كما سيشكل ضغطا على مجلس النواب من أجل التسريع بالمصادقة على قانون الإرهاب في أسرع وقت ممكن. هذا الذي سيمُدنا بالكثير من الصلاحيات ومزيد التجهيزات التي نحن في أمس الحاجة إليها.

هذا من الناحية السياسية والإعلامية وبإيجاز. أما من الناحية الميدانية. فالمنزل محاصر بقوات خاصة على أعلى مستوى من الكفاءة والجاهزية. احتمال هروب المشتبه فيهم منعدم.

احتمال وجود دعم لهم يكاد يكون منعدما.

احتمال كون المكان كمينا أو تمويها لعملية في مكان آخر منعدم.

كل الاحتمالات تؤكد أن المخزن توجد فيه أسلحة خفيفة.

احتمال وجود قنابل ضعيف للغاية. لكن اليقظة واجبة.

سيتم اقتحام المنزل فجرا كما تقتضي الخطة التي اطلعتم ووافقتم عليها، شِعارها:

- لا تفاوض.

- استسلام دون شروط مسبقة.

- احتمال تبادل النار وارد جدا.

احتمال فقدان أحد رجالنا يبقى ضعيفا للغاية.احتمال الإصابة وارد. استنادا إلى كل ما سبق. نسبة نجاح العملية تسعين في المائة. نسبة حدوث مفاجأة غير سارة عشرة في المائة.

للتذكير فقط. لقد تم أخذ جميع الاحتياطات اللازمة لعدم تكرار أخطاء عملية «رُواد» من تصوير جثث الإرهابيين وتمكين وسائل الإعلام من رؤيتها.

بعد هذا التفسير.

أعلن «القرد» عن انتهاء الاجتماع طالبا مني تشكيل خلية متابعة تحت إشرافي تتابع كل التطورات وتكون قادرة على اتخاذ القرار في حالة حدوث مفاجأة غير مرغوب فيها. طالبا مني أن أوافيه في مكتبه بعد الانتهاء من تشكيل الخلية.

ليلتها استغرق تشكيل خلية المتابعة حوالي النصف ساعة. حيث أكدت للجميع أنني لن أغادر حتى تنتهي العملية. وسأكون رهن إشارتهم في أي وقت. لم يكن ذلك غريبا مني فقد اعتدت أن أرابط في الوزارة لمدة قد تصل إلى أسبوع كما حصل أيام الثورة. أيضا حدث وأن رابطت هناك عند اغتيال كل من الشهيد شكري بلعيد والبراهمي.

هذه المرة لا يقتضي الأمر أن أقضي ليلتي هناك. كان باستطاعتي العودة إلى المنزل، لكنني وجدت فرصة البقاء في المكتب مُواتية للهروب من نفسي ومن المواجهة.

لم استقر بعد على رأي، شاركت في وضع خطة الاقتحام ولم أضع بعد خطة لحياتي وفق التطورات الجديدة. يوم صاخب بكل أحداثه، يوم مليء بالمفاجئات غير السارة، هيأت نفسي لأدخل مكتب «القرد» حاولت جاهدا أن أستفيد وأنا أستحضر كل الدروس التي تعلمتها في دورة تدريبية في أمريكا عن كيفية ضبط النفس في مواقف جد صعبة بشكل احترافي.

- تفضل سي صالح. أقعد راك ركيزة من ركائز الوزارة. أنا والسيد الوزير راضيين عليك فوق ما تتصور.

راضي علي ولا على «ز....» مرتي «قرد» حقير قلت في داخلي.

- أنا ما قمت كان بواجبي.

- سي محمد زاد مسطها اليوم كي العادة لسانو ماشي ويطوال حتى السيد الوزير ماعجبوش الحال. نصيحة مني ليك صالح راك خويا فُك عليك ماعادش دافع عليه.

خوك والله عال الأخوة بيني وبينك أساسها أنت راضع «ز....» مرتي ومرتك راضعة «ز..» أخوة معتبرة دائما داخل نفسي المشتعلة.

- سي ... دفاعي عن الكولونيل محمد نابع من إيماني بأنه رجل صالح ووطني عندو أخطاء صحيح. أما أقل برشة من لي إحنا نغطو عليهم عيني عينك وفي بالنا بيهم آش يعملوا.

- شبيك سي صالح عاقدها برشة يا وليدي صلي على النبي ريتنا توا قدمناه للمحاكمة. المهم الوزير قالي بأنك عجبتو برشة كان يتابع فينا بالطبيعة في بالك ويحب يشوفك ظاهرلي ثم مفاجأة سارة تستنى فيك.

- مرحبا وأنا ما قمت كان بواجبي.

- باهي سي صالح ظاهر لي أنت اليوم على أعصابك نعذرك تصبح على خير وأنت ماكش محتاج لتوصية.

قاومت رغبة جامحة في أن أحشو رأسه برصاصات مسدسي وليحدث ما يحدث. في داخلي أعرف أنني لا أملك القوة والجرأة لأفعل ذلك، لازال الجبن مسيطرا على تصرفاتي.

اتجهت مباشرة إلى غرفتي متحاشيا الوقوف مع بعض الزملاء الذين ينتظرون إذنا لدخول مكتب «القرد».

غرفة مُريحة. السرير يتسع لشخصين، دولاب فيه ثلاث بدل رسمية كاملة بمعاطفها، وثلاث بدل نوم. مكتب صغير مجهز بحاسوب وكل مستلزمات الاتصال الضرورية، على الحائط تلفاز مع لاقط هوائي. ممر صغير يفضي إلى بيت الراحة والحمام. غرفة فيها كل مستلزمات الراحة لمتابعة العمل في الحالات الطارئة.

دخل عليَ الحارس يسألني. هل يجلب لي العشاء؟ تذكرت أنني لم أتناول شيئاً منذ الغذاء. صرفته بلطف غير معتاد شاكرا اهتمامه ولطفه. ظهر لي لبرهة كأنه غير مصدق ما سمع.

ابتسمت في داخلي. فنحن شعب نحب ممارسة السلطة لا تطبيق القانون. لأنه ببساطة لا توجد قوانين لا سماوية ولا وضعية تَنُص على احتقار وازدراء الآخر والحطّ من إنسانيته مهما كانت قيمة العمل الذي يمارسه.

نحن لا نكتفي بالحطّ، بل يتعدى الأمر إلى التلذذ باستعباد وتعذيب الآخرين. لا لشيء إلا لإشباع نهم السلطة المتغلغل في

ذواتنا. جل موظفو الإدارات. البلديات، المستشفيات، والحرفيين أغلبهم تجدهم يتحينون الفرصة للانقضاض عليك بكل ما أوتوا من قوة.

يتفرس الموظف أوراقك بشكل دقيق ليكتشف خطأ يستطيع من خلاله العبث بك، كأن كل ما يهمه أن يجد ثغرة تُريحه من إسداء تلك الخدمة. تجعله تلك الثغرة إن وجدها وغالبا ما يختلق ثغرة من الهواء إن تعذر عليه إيجادها كأني به يتلذذ بعذابك. لتسمع الكلمة نفسها التي أصبحت مشهورة في بلداننا. تعبر بشكل واضح عن حالة إدارتنا وخدماتها:

– ارجع غدوة.

بأسلوب فظ يُنم عن كره لا مبرر له. في المستشفيات من الحارس للممرض مرورا بالطبيب. كما ستكون مُضطرا أيضا لتحمل تماطل الحرفيين وغشهم ستجد الأسلوب نفسه في التعامل بشكل عام. ليُشكل التعامل الصحيح الذي يُراعي القانون وروح القانون استثناءً يكاد يندثر لكنه موجود وهو يمثل الشعلة التي تبعث على الأمل بين الفينة والأخرى، والخوف كل الخوف آن تنطفئ. حتى ليتساءل المرء: هل هذا كله حرصا على القانون وتطبيق لوائحه؟ لا لا لا وألف لا.

موظفو الإدارة هم المسؤولون عن تطبيق القانون وهم أول من يخالفونه، يكفي فقط أن أشير إلى سجل حضورهم وخروجهم من وإلى الإدارات التي يباشرون فيها مهامهم، أعني تماطلهم. سيُغني ذلك عن كل تعريف.

تسيّب بأتم معنى الكلمة. فراغ في المكاتب والإدارة. يبقى الإشكال أنّ كل واحد منا يرمي بأصابع الاتهام على الآخر. هنا ننسى أننا كلنا مشتركون في هذا الوضع الناشز، كل واحد منا يمسك بطرف ليحمي هذا الوضع. لأنه يرى فيه نفسه. يُجسد ذاته، حتى الذين تُمارس عليهم هذه السلطة، يمارسونها هم بدورهم على غيرهم في سلسلة دائرية تجعلنا نشرب من النبع نفسه الذي ساهمنا في تلويثه كل حسب جهده وموقعه. ولا يمكن لهذا الأخير أن يصبح صافيا صالحا للشراب إلا إذا تعاونا كلنا على نزع الشوائب الموجودة داخل أعماقنا.

«التونسي للتونسي رحمة»

شعار لا علاقة له بالواقع المعاش حاليا. لا علاقة له بالواقع. لكنه يبقى شعارا جميلا يستحق أن يُولد من جديد، يستحق أن تكون له حياة، أن يكون له مكان كبير في قلوبنا.

ماذا حدث؟ من أنا؟ من يتكلم بداخلي؟ أهو ضميري أم حسي الإنساني الذي استيقظ فجأة؟ أ كنت أنتظر خيانة ألفة لأستيقظ؟

لماذا لم توقظني خيانتي للآخرين؟ أ لم أكن أمارس نوعا من السلطة؟ أتلذذ من خلالها بتعذيب الآخرين. ممارسة الجنس مع زوجات من أعرف ومن لا أعرف؟ لماذا لم أرسم لنفسي حدودا؟ إحساس مُميت قاتل أن تُطعن في شرفك. لماذا لم أفكر في ذلك من قبل؟ لماذا لم أدرك بشاعة الأمر إلّا عندما مُورس عليَ عندما اكتويت بناره؟ ألا أستحق ما أنا فيه؟ أم أنانيتي المفرطة هي من جعلتني أعتقد أن الآخرين يستحقون ما هم فيه أما أنا فلا؟

ما سر هذا الإحساس الأناني؟ من أين أستمده؟ هل إحساسي الحالي بالمهانة نابع من حبي لألفة زوجتي؟ لا أعتقد أنني أعرف الحب. لأن الأخير لا يعرف الخيانة.

لأول مرة أتساءل:

لماذا كنت أخون زوجتي؟

كل أسباب السعادة ومقوماتها متوفرة. زوجة جميلة، أبناء رائعون، منزل يرقى لمستوى القصر. وظيفة بامتيازات خيالية، ما الذي كان ينقص لأقنع بما أنا فيه؟ الوعي، الإدراك، الإيمان؟

هناك أكيد حلقة مفرغة وفظيعة. أنا شيّدت صرح الخيانة، معتقدا أنني أبعد ما يكون عن نيرانها. تعاملت مع ألفة كجارية اشتريتها لا كزوجة، لم أحترمها قط. كنت أخونها كل يوم، بل ومن أول عام زواج.

استمر الأمر على هذا المنوال وأنا أُقنع نفسي بل وأُعطيها الحق في ذلك. استفحل الأمر عاما بعد عام حتى نسيت أو تناسيت أنّ لي زوجة لها عليَ حقوق. تملك جسدا جميلا في داخله تشتعل رغبة جامحة. كنت أنا أعرفها، أحسها، وأتجاهلها، حتى جاء غيري ليستمتع بما هو لي. كما استمتعت أنا بما ليس لي.

آي إنسان أنا؟ لم يسبق أن قضيت وقتا كافيا كاملا مع أسرتي الكبيرة والصغيرة. وأنا شاب في رحلة بحث دائمة عن المتع وهي أمامي ولا أراها. نعم، البصيرة والفهم الصحيح هُما ما كانا ينقصاني، يقول «نيكوس» الإنسان يحتاج إلى المعرفة بقدر احتياجه للفهم الصحيح لها أو الأقرب إلى الصحيح، وجود المعرفة في غياب

فهمها كعدمها» لم أقض يوما مع أسرتي نتبادل فيه القذف بالوسائد في البيت، نتقاذف أمواج البحر في الصيف، كرات الثلج في الشتاء.

لم أتعلم أن أنظر إلى ما أملك وأتمتع به مهما كان بسيطا. كنت دائم النظر إلى ما يملكه الآخرون، معتقدا أن المتعة منحصرة في أشيائهم، حتى جاء من اعتقد المتعة فيما أملك ووجدها حاضرة بلا حارس ولا رقيب. أي منحرف أنا؟ كيف صرت هكذا؟ لماذا لم أتفطن لنفسي وأنا أتهاوى يوما بعد يوم؟ كيف تم ذلك في غفلة مني؟

هل قبّلت يوما ابنتي ياسمين كما كنت أفعل مع أختي فتحية في شبابي؟ كنت منبع الفرحة.. أتصرف بعفوية.. قد أُقبل أمي على وجنتيها قبلة طويلة قائلا لها:

- ما بنك يا مرا. صحة ليه بابا عمار، صحة ليه.

- يا ولدي احشم احشم يزي.

تقول ذلك وعلامات الفرحة تملأ وجهها. في رحلتي الطويلة لم أعد قادرا حتى على خلق مثل هذه اللحظات الجميلة مع أسرتي والتي كنت بارعا في صنعها فيما مضى. كنت أصنعها لأنني أبتغي من ورائها مصلحة، شيئا ما.

- هيا محرزية المزيانة ثماشي فلوس؟

- حتى أنا كنت نعرف متدخلش تضحك وتفدلك هكا إلا ناوي على حاجة إيجا خوذ وليدي إيجا.

نعم، وعندما أصبحت قادرا على توفير كل ما ظننت أنني أحتاجه، اختفت القدرة. لا، الرغبة في صنع لحظات تُسعد الآخرين.

أين غاب كل هذا؟ ألم تكن هذه هي المتعة في مكانها الصحيح؟ كيف تحولت؟ كنت أجمل وألطف مما أنا عليه الآن بكثير.

هل صادقت ابني؟ لاعبته الكرة، لاعبته ألعابه الإلكترونية، هل سألته يوما عن فتاة أحلامه. أية لعنة سرقتني من عالمي الجميل الذي أمتلكه؟ أرتقي من منصب إلى آخر. كما أنتقل من أنثى لأخرى، وأنا أتخيل أنني أعيش.

معتقدا أن السعادة تكمن في ممارسة فحولتي مع من هب ودب، ناسيا أنني تركت السعادة الحقيقية في بيتي وأنّ ما أبحث عنه مجرد وهم وسراب.

دعتني مؤخرا ابنتي ياسمين لحضور حفلة موسيقية ستشارك فيها كعازفة للكمان. قلت لها معتذرا:

- ماعنديش وقت بنيتي. دون أن أكلّف نفسي سؤالها عن وقت العرض وهل فعلا أستطيع أم لا؟ كانت الإجابة حاضرة بشكل لا إرادي في أعماقي. كنت أعرف أنني لو أحببت لاستطعت.

ماذا أفعل؟ ماذا تفعل بي أيها الضمير المستيقظ؟ أتريد أن تخلق أعذارا لخيانة ألفة؟ أ هي نتيجة طبيعية للحياة التي اخترتها؟ «السن بالسن والبادئ أظلم»؟ لا... لا... وألف لا. قَذِر أنا صحيح، خائن، لكن كل هذا لا يُبرر خيانتها لي لأسرتها، لأولادها. أ لم يكن جدير بها وهي شريكتي أن توقظني بشكل آخر؟ يجعلني أُعيد حساباتي

كما أعيدها الآن؟ لو كانت شريفة لَمَا قبِلت خيانتي لها لحظة واحدة.

لطلبت الطلاق. نعم. أ لم يكن طلبها للطلاق مثلا وإصرارها عليه كفيل بأن يوقظني؟

كنت أعرف أنها تعرف الشيء الكثير عن مغامراتي. لماذا تحصّنت في صمتها؟ تكتفي بتلميحات بين الفينة والأخرى. لماذا نخاف من المواجهة؟ كما أنا خائف الآن. لماذا لا تُطرح المواضيع الحساسة للنقاش داخل الأسرة؟ لماذا الحوار لا يتعدى مفهوم الطلبات ونقل أخبار الآخرين والتلذذ بسماعها؟

– لماذا؟

ألسنا زوجين من خرّيجي الجامعة؟ مُجاز أنا في الحقوق ولا أعرف من الحقوق إلا حقوقي، رغباتي أنا.. لم أسأل يوما أو أهتم بحقوق أقرب الناس إليّ. إجازة في الحقوق لغاية التوظيف ليس إلّا. هي مُجازة في الآداب ولا أعتقد أنها أضافت إلى حياتنا حسا جميلا بمعرفتها ودراستها للآداب. أيُعتبر هذا وضعا عاديا لزوجين مثقفان؟

لم تَطرح الموضوع لأنها ببساطة خائنة، حقيرة، عاهرة...

المرأة الصالحة تحرص على شرفها ليس إكراما لزوجها بل لأصلها وأولادها ويأتي زوجها في المرتبة الثالثة.

– الهاملة كانت مقملة عريانة جيعانة.. لميتها من الفقر هي وعائلتها، رجعتها مرا تخوني.

«إذا أكرمت الكريم ملكته وإذا أكرمت اللئيم تمرد» هذا هو بالضبط.

رن هاتف مكتبي.

كان محمد علي ابني على الخط.

- ألو بابا لاباس.

- أهلا محمد علي ولدي سامحني ما تصلتش ومانجمش نجي ماك سمعت اش صار في التلفزة.

- لا نعرف بابا نعرف، نسأل نحب نطمأن عليك واكهو؟

- لا لاباس ولدي لاباس يعيشك راني مقصر معاكم برشة أما الله غالب.

- لا لا بابا ربي يخليك لينا.

- أنت في الدار؟ ياسمين رجعت؟

- إي في الدار كلنا في الدار.

- عيش ولدي ردو بالكم على أرواحكم تصرفوا كيما علمتك في الحالات كيما هذي.

- لا بابا ما تخاف. إحنا رادين بالنا برشة، أمي وياسمين يحبو يكلموك.

- لا لا ولدي عندي ما نعمل توا غدوة إن شاء الله.

- بسلامة بابا. تصبح على خير وحل تليفونك راك فجعتنا.

آه كم تمنيت أن أكلم ياسمين أن أسمع صوتها، تلك المشاغبة المشاكسة، تمنيت أن أقول لها إنني لن أُفوت بعد اليوم أي عرض تشارك فيه، وأنني سأسمع كل معزوفاتها.

محمد علي ابني الهادئ. لا يُسمع له صوت، أرى فيه أخي الطاهر وأبي، وهذا سر انزعاجي منه أحيانا. حتى بِتّ أعتقد أن لا طموح له، راض تماما بما هو عليه، زد على ذلك رغبته في أن يكون صحافيا، والتحاقه بكلية الصحافة، عَمّق اختياره هذا الفجوة بيننا، أنا الذي كنت أُمَنّي النفس أن أراه مهندسا، طبيبا... دائما يُطالع، غارقٌ هو في كتبه.

اليوم فقط. اكتشفت ربما متأخرا أو ربما خوفا كم هو جميل أن يكون للمرء أبناء. في لحظات كالتي أعيشها اليوم يصبح وجود الأبناء هو البلسم، هو أمر رائع أكثر من أي وقت مضى. ياسمين المشاغبة حبيبة قلب آبيها.

عبارتان تطنان في أذني الأولى تبعث على الاشمئزاز.

 عجبك رقصي سبعي؟

والثانية لخالتك زهرة تبعث على الفخر والارتياح.

- أولادك تبارك الله ربي يكمل عليهم بعقلهم قاموا بالواجب مع عمتهم وأكثر.

آه ثم آه. أين كنت؟ كم لحظة جميلة فَوّتها على نفسي؟ كم من متعة رائعة ضيعتها؟ أتساءل: لماذا يربط المخيال الشعبي العربي السعادة بعنصرين فقط، المال واللحم الحيواني والبشري؟ إذا سألت معظم الناس ستجد السعادة مرتبطة بهذين العنصريين،

اللحم بكل أنواعه.. كل ما نملكه من مال مُسخّر لجلب هذين العنصرين. العناصر الأخرى كلها محفزة فقط، خمر.. أقراص.. السعادة والمتعة منظومة متكاملة تتشكل من عدة عناصر لتُعطي في الأخير ما يمكن أن نسميه -بشكل نسبي فقط، إذ لا يمكن أن يكون مطلقا أبدا أبدا- ما يسمى السعادة.

السعادة هي تلك الأشياء البسيطة والمهمة التي لا نبالي بها رغم تمتعنا بها كل يوم. أقصد لو تبصّر الأصحاء حالة المرضى فقط لقنعوا بما هم فيه. السعادة لا تعدو أن تكون مجموعة من القطرات المتناثرة الخفيفة والقوية التي تشكل في الأخير مطرا تحيا به الأرض والناس.

تلك القطرات هي ابتسامتك في الصباح لكل من تُصادفهم، هي معاملتك بلطف للناس، هي قيامك بواجبك في العمل دون نقصان، هي أن تراعي ضميرك، هي تلك القبلة على وجنتي طفل بريء، هي تلك الأكلة التي تحضرها لك زوجتك كل يوم دون كلل أو ملل. هي أن تجد كل عيد وجه أمك وأبيك لتقبله، هي الفرحة التي تزرعها في قلوب كل من تقابل هي... هي...

- أتساءل؟

أين نحن من هذه الأشياء البسيطة؟ أصبحنا نرى السعادة في فنجان قهوة بعشرة دنانيرأو أكثر، بمبلغ يفوق قيمته الحقيقية بألف مرة، وفي المقابل نتّهم متسولاً رثّ الثياب بالتحايل لأنه طلب مائة مليم. أصحاب المقاهي من هكذا نوع لا يتحايلون، بل يحلو لنا أن نساعدهم بجهلنا وبإعطائنا لأشياء تافهة لا تستحق، أن تزداد قيمة أكثر من قيمتها الحقيقية.

أصبحنا نرى السعادة في نوعية المقهى مثلا. وليس مع من سنجلس في المقهى. انتقلنا من مرحلة الاهتمام بالشخص وتقييمه كجوهر إلى الاهتمام بالأشياء المحيطة به وربطها بقيمته، بل تلك الأشياء المحيطة بالشخص هي من تحدد قيمته، جعلناها هي معيارالتقدم والرقي، بل والانتماء للنخبة أيضا. حتى أصبح مجلس النخبة يحوي مجموعة لا بأس بها من الأفاقين والمحتالين والجهلة. بل صاروا هم من يتحكم في مصير حياتنا اليومي. وصاروا ينتجون كل شيء وفق تصورهم المليء بحب الأنا والذات. حتى كدنا نصير كلنا من قبيلة آل نرجس.. أنانيون، مغرورون.

أليس هذا ما أوصلني إلى ما أنا فيه؟

انغمست في ذاتي، عبدتها، كَبُر الأنا عندي.. أصبحت كل الأشياء من حولي وكل الذوات الأخرى حقيرة. بمسميات متعددة أنا... أنا أستحق الأفضل، كلكم يجب أن تدوروا في فلكي أنا فقط.

لا أدري ليلتها متى نمت. وكيف كان ذلك. لسنوات عديدة لم أنم هكذا، نوم لم يُوقظني فيه شيء.. لا كوابيس ولا مُنبه طوارئ، لم أرَ منذ سنوات خلت حلما جميلا كما رأيته تلك الليلة.

من أين تنبع هذه الأشرطة السينمائية؟ كيف يتم إخراجها بهذه البراعة؟ لتزورنا دون استئذان تغزو ليلنا وتحوله، إما إلى كابوس مرعب، أو تُسافر بك دون تذكرة أو طائرة، إلى جنة لم تحلم بها.

هل الأحلام انعكاس لأفعالنا؟ التي لا يمكن أن تكون إلا في إطارين اثنين فقط. خير أو شر. أي فعل مهما كان بسيطا تافها يدخل في إحدى هاتين الخانتين، ولنا نحن الاختيار في أن نُحدد

أيُّ الخانتين نحرص على أن تكون ممتلئة أكثر. تأتي الأحلام تنبّه، تحذّر، إشعار. أو أحيانا بُشرى، وعد، توجيه.

أيقظني الملازم المكلف بالمتابعة الميدانية في غرفة العمليات حوالي الساعة السادسة صباحا. مُؤكدا أن لا شيء يستحق الذكر. كل شئ تم كما هو مبرمج له.

اقتحمت فرقة خاصة المنزل في الفجر بعد تبادل كثيف لإطلاق النار. قُضي فيه على المشتبه فيهم. الشيء الوحيد المؤثر، هو أن إحدي النساء المتحصنات بالمنزل المحاصر، كانت تحمل رضيعا. أرادت أن تخرج وهي تحمل رضيعها مستسلمة، معتقدة أن وجود الطفل الرضيع في حضنها سيشفع لها. لكنها لم تجد سوى الرصاص في استقبالها.

كنت منتشيا بحلمي فأيقظتني هذه الصورة البشعة. حركت في داخلي أشياء لم تكن موجودة من قبل. بل كانت موجودة تحت أكياس إسمنتية من التكبر والعجرفة. وجدت نفسي أتساءل بلهفة وتحسر:

- والرضيع؟

استغرب الملازم سؤالي ونظر إليَ مندهشا كأنه لم يتوقع مني هذا السؤال بالذات.

- بطبيعة الحال مات مع أمه أصيب برصاصة على مستوى الرأس. لكننا أكدنا لوسائل الإعلام أنه بخير وتم نقله إلى المستشفى أمام الإعلام والرأي العام.

- هذه جريمة.

خرجت دون أن أنظر إليه أو أنتظر منه جوابا أو رأيا. تخيّلت وأنا في الطريق لو أن هذه العملية حصلت في السويد أو فنلندا، أعتقد أن الإعلام والمجتمع المدني سيترك كل شيء وستتصدر صورة هذا الرضيع كل الجرائد والمحطات التلفزيونية.. سيصبح الشغل الشاغل. بل سيُفتح تحقيق في جريمة حق عام على الفور.

عندنا وبعبارة أدق.

«فليذهب إلى الجحيم» «يمشي ين...ك»

أضعنا الحاضر. ونبعث بالمستقبل إلى الجحيم إلى الماخور ونتحسر على الماضي. قذارة... قذارة... قذارة...

الفصل 5

ذاكرة الرحم المَوصُول

أُجاهد النفس على البَلى في مُبتلاها
فلا أرى في الجِراح مُجرم...
فبعض الجروح التي الزمان أبقاها
مدرسة أنا فيها ومنها أتعلم...
أحمد وائل

لم أتردد دقيقةً واحدة. كنت أعرف أنها ستكون مستيقظة ذاك الوقت. وأنا في الطريق هاتفتها.

– آلو فتحية. صباح الخير.

– صالح خويا، صالح ماو؟ صالح؟

– أيه فتحية صالح الطالح. صالح معاك. في الدار أنتي؟

– إيه خويا أنا في الدار الجديدة. تعرف مَاو؟

– إيه نعرف هاني جاي في الثنية أختي، هاني جاي.

استقبلتني كأن لم شيئا لم يقع بيننا، كأنني لم أطردها من عالمي، كأنني كنت مسافرا وعدت، استقبلتني بحضنها الدافئ، بدموعها الحارة، بقبلاتها.

– قداش توحشتك قداش توحشتك، وهي تتحسس يدي.

دفنت رأسي في حضنها، وبكيت. كطفل صغير، قَبّلت رأسها، قبلت يديها، أختي العزيزة، أمي الثانية، أرى فيها أمي، أرى في عينيها طفولتي، شقاوتي...

نعم كنت غائبا، كنت مسافرا في بلاد بعيدة، بعيدة جدا. مُظلمة، كنت بعيدا عن وطني، كنت بعيدا عن دمي، عدت الآن.

استقبلتني عائلتي بالورود والزهور، كانت في مقدمتهم ابنتي ياسمين وابني محمد علي، أختي فتحية، أخي الطاهر، بعض الأقارب من أولاد العم والخال، أخي الطاهر وأبي يرتديان جبتان متشابهتان، الكل هتف بصوت واحد:

– وأخيرا عدت يا صالح. كنا قد فقدنا الأمل في عودتك.

هكذا صاح أخي الطاهر وهو يعانقني.

– لفترة اعتقدنا أنك مت. أضافت فتحية.

– كان عندي إحساس كبير أنه حي. قالت ياسمين ابنتي.

– بابا توحشتك برشة برشة حمد الله على سلامتك. قال ابني محمد علي.

هكذا كان حلمي ليلة أمس، كانت لذة اللقاء، لذة العودة، لا تقابلها لذة.

– صالح لاباس. خويا لاباس؟

– تاعب أختي فتحية تاعب برشة برشة.

- اللطف على وْخَيْ. شبيك مريض لاباس؟
- ياريت، يا ريتني مُت الموت كان أهون..
- اللطف عليك إن شاء الله لي يكرهوك.
- تخون فيا يا فتحية، تخون فيا، يا ريتني صدقت كلامك من وقتها يا ريتني. تخون فيا الكلبة المقملة.
- اسكت. اسكت. اسكت مروى راقدة في بيتها مازلت كي روحت من السبيطار تسمعنا.

وهي تقودني طالبة من الهدوء والصمت إلى غرفة الجلوس نازعة عني معطفي.

- آه يا فتحية. قداش أنا بهيم أناني، ما نخمم كان في روحي. البركة فيك في حمة. البركة فيك أختي الله يرحمو والله لا في بالي ولا سمعتها. ورحمة أمي وبابا لا في بالي وخيتي.

ارتمت عليّ، انهارت، انغرست في صدري وبدأت تبكي. بكينا معاً، غسلت الدموع الآلام والأشواق المترسبة في القلوب لسنوات مضت. آلام صنعناها بأيدينا، بجهلنا...

بارعون نحن في صناعة الجفاء، الآلام، الجبن، الفشل، الكره، الخوف.. فاشلون تماما في صناعة، الحب، الألفة، النجاح، الشجاعة، الفرح..

- نعرف خويا نعرف. الله يهدي شكون كان السبب، أما والله محمد علي وبنتي ياسمين دخلتهم عليَ بالدنيا يا صالح. تعرف؟
- أنا السبب يا فتحية ولي غاضني وفرحني، غاضتني من ولادي ما قالوليش وفرحت كيف هما قاموا بالواجب.

- ما تلومش عليهم أنا حلفتهم ما يقولوش، وزيد نهار لي مات المرحوم كنت أنت مسافر بالرسمي يا صالح. محمد علي قالي، ولدي ما يكذبش ربي يكملو بعقلو.
- هيا الحمد لله كي قلت حاجة وجات بالزهر صحيحة المرة هذه، أما والله يا فتحية كان عرفت نجي وراس وخييتي نجي.

صمتنا لدقيقة أو دقيقتين استرجعنا أنفاسنا، أحسست أنه أوجعها كثيرا غيابي عن وداع زوجها إلى مثواه الأخير، هي محقة تماما في ذلك. لولا أن أبنائي خففوا هذا الألم في عيني وقلب أختي. هل كانت ستسامحني؟ نظرت إليّ بكل حنان ولطف.

- فطرت صالح خويا؟
- لا مازال أختي، وجيعان من البارح ما كليت شيء لليوم. باش نفطر بحذاك فطور الصباح والقايلة، البارح نحلم بالكسكسى متاعك.
- بالمجد خويا؟ بالمجد تحكي؟ باش تقعد بحذايا؟
- والله ورأس وخيتي.
- ملا اقعد ارتاح خليني نمشي نحضر ليك فطور الصباح، فطور زمان، متاع أمي الله يرحمها.
- الله يرحمها وينعمها ويسمح لينا منها هي والشايب.
- آمين خويا أمين ويرحم حمة.
- الله يرحمو ويوسع عليه فتحية، ماتنسيش بالله كويس قهوة معطر بالزهر كي العادة نحل بيه راسي باش يتفرقع.
- كان صبرت راك حجيت مانيش ناسية.

تركتني وحدي لهواجسي تنهش ذاكرتي وغابت. استحضرت صورتها لأتأمل. ماذا فعلت بها السنون. لم تتغير كثيرا، أعتقد أن الزمن لم يأخذ منها الشيء الكثير، لكن موت حمّه المفاجئ رَجّها، أفقدها توازنها. تأملت الشقة. رائعة في الطابق الثالث مُجهزة بمصعد كهربائي تبعد عن منزلي ثلاثة كلم على أبعد تقدير.

متكونة من ثلاث غرف وصالة. مجهزة بكل مستلزمات الشقة الحديثة: تدفئة مركزية، أثاث ينمّ عن ذوق راق. أكيد لمروى وسفيان بصمة ظاهرة فيما أرى. في الممر مجموعة من الصور: صورة لأبي وأمي. صورة لي أنا والطاهر وفتحية وزوجة الطاهر في عرسه.

وفي المقابل صورة كبيرة لحمة وفتحية. يحيط بهما على اليمين سفيان بلباس التخرج وعلى اليسار مَرْوَى بميدعة الطبيبة. أعجبتني الصورة. وقفت أتأملها بإعجاب. أحسن هدية يمكن أن ينالها الأب والأم. أجمل لحظة فرح يمكن أن يشعر بها. لحظة نجاح أولادهما وتخرجهما، وبعد ذلك تأتي لحظة رؤيتهم عرسان لتكتمل الفرحة معلنة معها اكتمال الرسالة، اكتمال أداء الواجب، اكتمال النجاح.

تخيلت ابنتي ياسمين وابني محمد علي كذلك، لم أكن راضيا كل الرضا على توجههما الأدبي. ياسمين طالبة في معهد التصميم والفنون الجميلة في الدندان. ومحمد علي في كلية الصحافة.

كانت دائما تُغريني الشعب العلمية، أو هذا ما ترسخ في أذهاننا. رغم أنني خريج جامعة أدبية وأمهما كذلك. لست أدري ما الذي جعلني أنتظر عكس ذلك ولا أتقبل توجههما؟ هل ظل

حلم أن أرى أحدهما طبيبا هو المسيطر؟ هل أعجبتني الصورة لأن حلمي تجسد في مَروى ابنة أختي؟ لست أدري لماذا؟ ولكنني الآن راض تمام الرضا على اختياراتهما.

– الآن يا صالح الآن.

تمنيت لو أسمع هذا الصباح عزف ياسمين على الكمان. في الكثير من المرات تسرب إليّ صوت عزفها في البيت لكنني لم أقف ولو مرة واحدة أتأمله أستمتع به.

بعد وجبة فطور أكثر من شهية. تلاعبت رائحة الدرع بخياشيمي، أعادتني إلى أيام الطفولة والبرد في أواخر السبعينات حيث كان صحن الدرع الصباحي كافياً لإعادة الدفء للجسم، زيت الزيتون رمز بلادي، شامية، زيتون أخضر وأسود، بيض مسلوق. أما الشيء الذي لم أكن أتصوره وشكّل مفاجأة سارة. منظر الخبز المرقق المكسو بالزبدة والعسل. الحيّ كله كان يشهد ببراعة أختي فتحية فيما يسمى عندنا «ملاوي دياري»

– شنو عملتلك فتحية؟ شنو الفطور هذا الكل؟

– كول خويا صحة وبالشفاء.

بعد وجبة الفطور عدت إلى قاعة الجلوس وأنا أحمل فنجان القهوة العربية المنكهة. أشعلت سيجارة وانغرست في الأريكة أمام النافذة المطلة على الحديقة.

آلاف الأسئلة تطحن دماغي. تعصره لا يمكن أن أختبئ أكثر. يجب أن أواجهها اليوم. لم أنتبه لدخول فتحية التي حرصت على أن تُغلق الباب وكأنها تقرأ أفكاري.

- تعرف أنا كنت نخمم من مدة. نجيك شوف سبحان الله أنت جيت.
- هيا باهي كي سبقت في حاجة باهية المرة هاذي.
- هيا آش قررت؟ أش باش تعمل؟
- كلبة تستاهل الشنق.
- اسمع خويا رد بالك، ربي كما شرّع الزواج شرّع الطلاق. رد بالك تعمل حاجة تندم عليها، تضيع بيها روحك وأولادك، خمم برشة برشة في ولادك نوارة عينيك.
- آه يا فتحية كأنك داخلة في مخي، من البارح إلي مصبرني عليها أولادي. لولاهم ندفنها الكلبة حية وعينيها تُخزرْ. أما صحة ليها.
- اسمع صالح على خاطر ولادك. علاش خويا ما تسامحهاش؟
- نعم. نعم فتحية أنت تقولي الكلام هذا. صحت كالملدوغ.
- أنا نسامحها على خاطر ولادي. هي كي تتسرمح مع ذاك القرد محطاتش ولادها بين عينيها.
- بالله يعيش خويا ما تعاود السيرة هذه جملة، وأمانك اسمع كلامي. أنت ديما ما تسمعش الكلام، أمانك المرة هذه أسمع الكلام. طلقها من غير ما تقول السبب من غير ما تقول. علاش؟ على خاطر ولادك. ماسطة الفازة يسمعوا بالحكاية والناس تحكي إلي أمهم طلقت على الشيء هذا، اللطف ربي تستر كل ولية. فكر في ياسمين صبية وعروسة تبارك الله، فكر في محمد علي قدام ندادو وصحابو آش باش يقولوا عليه. لا، يْعَيْشْ خويا ماهيش لعبة خمم مليح.
- والحل؟

- تحكي أنت وإياها راس راس. لا تضربها ولا تمسها تفلت أعصابك تعمل فيها حاجة تقعد نادم عليها عمرك الكل. سب، قول إلي تحب، الضرب لا، لا، كيما تلاقيتو بالمعروف تفارقو بالمعروف. وأنا نعرفها ماهيش باش تقول لا هي زادة ما يساعدهاش تفضح روحها وأولادها. الشيطان حضر وصار لي صار واكهو.
- والله يا فتحية زدت كتفتني بكلامك، والمشكلة كلو صحيح. بالله أشنو أحوال الطاهر خويا؟
- مستحيل صالح مستحيل. بالله أش مفكرك فيه توا، شوف أحنا فاش نحكو وأنت فين نقزت؟
- ماخذ في خاطرو مني، لا. كلكم ماخذين في خاطركم مني.
- صالح أنت خونا الصغير. وإحنا نحبوك والدم عمرو ما يولي ماء، والصغير مهما يكبر كل شئ مقبول منو، وزادة على خاطر المرحوم والمرحومة. الطاهر خويا ديما يقول غايضني حالو ماشي في طريق غالطة ومنجموش نعاونوه ما خلاناش.
- كلامو صحيح، هذاك علاش ماكنتش نحب نقابلو. لأن كل ما نشوفو مانتحملش نظرتو لي، نتذكر بابا الله يرحمو ينظر لي. تنتابني الرهبة والخوف.

تعرف فتحية بابا كان مدللني صحيح برشة، ويعطيني أكثر من الطاهر ومنك. أما كان الله يرحمو كي يتكلم قدام الناس على ولادوا. يتكلم على الطاهر ويفتخر بيه ويرضِى عليه. ويقول ربي يكملو بعقلو. أما أنا يتكلم عليَ كأنني خارج الطريق مانيش عاجبو

ديما في الأخير. ربي يهديه ويبعد عليه ولاد الحرام. ياخي في الأخير وليت أنا من أكبر ولاد الحرام، حاشا بابا الله يرحمو.

- صلي على النبي صالح حاشاك حاشاك خويا.

- لا فتحية هذه الحقيقة ما عادش نهرب منها عمري كامل وأنا هارب لازمني نواجهها.

- صالح أنا باش نخرج توا، يظهر لي فيك سخنت برشة، نخليك ترتاح مع روحك وخمم برشة في الكلام إلي قتلك عليه. نمشي نقضي قضية الغداء ونرجع كان تحب ترتاح ادخل لبيتي الدار دارك.

فكرت في كل ما قالته فتحية قَلّبتُه من كل الجوانب. وجدت أن الصواب في كلامها. لا يمكن أن أتحمل المساس بسمعة أولادي. سأُطلقها وليذهب كل منا في حال سبيله. لتأخذ ما تريد.

لكن هل سيختار أولادي العيش معي أم معها؟ مهما تكن أخطاؤها معي، فهذا لا يُنقص من أُمومتها شيئا. بل بالعكس كانت دوما أقرب إليهما مني. عادت إليَ الذكريات لتسحقني. أول لقاء، أول همسة، أول قبلة... كيف أجّجَ رفض أمي وفتحية القاطع والتزام الطاهر الصمت الدال على الرفض إصراري على الارتباط بها؟ ورغم ذلك لم أجرؤ أن أتزوجها في حياة أمي.

- يا وليدي إلي تعرفوا خير مْلّي ما تعرفوش، بنت خالتك زُهرة بحذانا زين وعين ورُتبة وتربية.

- يا أمي ما يزيش خويا الطاهر خذا أختها. ياخي باش نسلعُوا منهم ولا كيفاش؟

- شبيه خوك الطاهر أنا إلي مخليني شادة الصحيح خوك الطاهر. مرتو كيف النسمة جابلها ضحكت، ما جهبلهاش ضحكت، تجي تطل عليَ قبل ما تطل على أمها. تخدمنا بعينيها أيام وراء أيام، أعوام وراء أعوام. لا تبدلت ولا تغيرت كالذهب المطبوع. مش كي مكبوبة السعد نتاعك، جات نهار دلكتني وهي راسمة عليك تخدم في مخها من أول نهار منين ولات تشوفك وحدها. لا طلت ولا جات، وقبل ما كانتش تخرج من بحذانا.
- ماو أختي فتحية زادة عرست، وهي تحشم من راجلها.
- لا حمّه خاطيه مسكين، يخرج من الفجر يرجع مع المغرب، وقبل كانت تكش عليها أكثر من توا، كانت تقلها راسك رزين وهي تضحك أما توا ولا عندها خشم، منين طلعلها سبحان الله ما نعرف. أنا نعرفك راسك صحيح تخلي بنت إمام جامع باش تاخذ بنية لا نعرفوا أصلها من فصلها هذه قاتلهم اسكتوا.
- شبيك أمي توا تغششت، ياخي ريتني نكتب في الصداق توا، نفدلك معاك ياخي تغششت بالمجد.
- يا وليدي نعرفك ماكش تفدلك. ونعرف اكا اللفعة ماخذتلك عقلك أما ربي يهديك وينورك ويوريك طريق الخير وإذا ما تحبنيش نتغشش خليني نخطبلك بنت خالتك زهرة راهي أمها بينت لي إلى فما شكون جاي يتكلم عليها وإذا عطاوها لا عاد نكلمك على زواج ولا على ماخذة والا ركبت راسك توا يجي نهار وتعرف كلامي يقولوا: «خوذ بنت الأصول لعل الزمان يطول».

قَبّلت رأسها وغيرت الموضوع لخمس دقائق ثم خرجت. الله يرحمك يا أمي الله يرحمك.

وَفَت بوعيدها. لم تُكلمني بعد ذلك أبدا عن الزواج.

- ألو صالح. أمك تاعبة شوية أحنا في سبيطار الرابطة. كالعادة الكل موجود دائما أصل متأخرا صدفة هي أم اختيار.
- سألت الطاهر وفتحية، لاذا الاثنين بالصمت. كررت صائحا: لاباس؟ آش وقع؟ هي بخير لاباس آش وقع؟ تزامن صياحي مع خروج الطبيب.
- الحاجة لاباس عمرها ما عادش يتحمل برشا غُش، المرة هذه ربي ستر (الطونسيون) طلع 20 خليوها ترتاح شوية ساعة أو ساعتين وبعد روحوا بيها. إن شاء الله لاباس.

تساءلت: ياخي مع شكون تعاركت شكون غششها. أجابتني فتحية وهي تزم شفتيها:

- لا ما تعاركت مع حد. كانت في كتاب الصداق متاع أسماء بنت خالتك زهرة، جاب ربي ريتها وتبعتها للدار. قالت باش ندوخ، كلمت حمّه والطاهر بطبيعتهم موجودون في العرس جبناها لهنا.

لم أنبس بكلمة، لم أعلق، تسللت ودخلت إلى غرفتها في جناح الاستعجالي. لم تقل أي شيء، دمعت عيناها، لكنها لم تقل شيئاً، لم تقل أنت السبب. بعدها بستة أشهر فارقت الحياة، ذهبت دون أن تعود، خلال هذه المدة لم تكلمني قط عن الزواج، لم تسألني عن ألفة، لم تقل عنها «اللفعة»، كأن الأمر لم يعد يعنيها البتة، لا يهمها. اختفت الفرحة، اختفت الابتسامة حتى عندما أدُاعبها لا تستجيب البتة لمُداعبتي.

تستقبلني بنظرات العتاب في عينيها. لم يعد وجودي يُدخل الفرحة إلى هذا المنزل كما كان، ذهب كل ذلك أدراج الرياح. منذ ذلك اليوم تغير كل شيء. بدل أن أُحِس بالندم ازداد حقدي على الطاهر بشكل كبير. اعتبرته هو المحرّض الصامت لكل ما يحصل، أمي كانت تستمع لكلامه ومشوراته، الكل في حضرته يلتزم الصمت الدال على قبول كل ما يقوله كأنه كلام مقدّس.

لو وافق بشكل أو بآخر لتغيّر كل شيء، في مسألة ارتباطي بألفة كان دائما متحصّنا بصمته الدال على أشياء كثيرة. فتحية رغم سلاطة لسانها مع ألفة وإهانتها لها في الكثير من المرات. لم أحقد عليها، كنت أعرف أنها لا تعدو أن تكون، المتحدثة الرسمية باسم الكتلة. غاب وجه أمي وغاب معه الرفض لألفة.

حل محله شيء أشنع من الرفض. اللامبالاة. لم يُشاركني أحد استعداداتي للفرح. بل لم يسألوني حتى. جل العائلة انتقل إليها الوباء بسرعة البرق كأنني أجرمت، الكل ظل يهمس.

- هذه لي ماخذها بالسيف على أمو وعائلتو. ماتت فيها أمو من القهرة.

ارتبط موت أمي في الأذهان بقرار زواجي، كأنها لم تكن مريضة، كأنها لم تكن مُسنة. ظل الكل يتهمني بصمت قاهر بموتها، عذبني ذلك، بل أفقدني القدرة على التمتع بعرسي، كأنني أحُضر لجنازة. لم يخفف عني أحد هذا الإحساس، بل ساهم الكل في تعميقه.

في الأخير جاء جفائي قاسيا. أنا الآن لا أصدق أنه نابع مني أنا. في الجنازة تعاملوا معي كقاتل مجرم. لم أُعامل كمكلوم في أمه. بكيت وحدي لم يحضنني الطاهر كما فعل في موت أبي.

لم نبكِ معا، لم يفعل، أشاح عني، متحصنا في صمته القاتل، اللعين، المقدس. أنا صالح الذي صُودرت أحزانه وأفراحه بموجب عادات وتقاليد أكل الدهر عليها وشرب. نقمت، كرهت كل شيء أردت أن أتنصل من كل هذه القيود، نزعتها عني كلها، محوتها، محوت الصالح فيها والطالح. بعد مرور ثلاثة أشهر أردت الزواج.

- ياخي هبلت. قالت فتحية. آش باش يقولوا الناس؟ مازالت أمو كي ماتت عينيها مازالو ما تفقسوش باش يعرس، خلي يا خويا يفوت العام وبعد أعمل إلي يظهرلك وربي يهنيك.

هل يمكن أن أقول إنني شعرت بالارتياح لوفاة أمي؟ لم أستطع أن أتزوج ألفة في حياتها رغم إصرار الأخيرة الذي وصل إلى حد الجنون، خوفا ورُعبا بأنني ربما لن أفعلها.

- ياخي أنت قاصر، ما تنجمش تعرس إلا برضاء الوالدة. ياخي ماكش راجل؟
- سكر فمك لنكسر هولك وكان عجبك، مانيش باش نغششها ما يزي شوية لماتت من جرتي تحبني نقتلها؟ ما فماش عرس إلا برضاها. فهمت.
- ربي يهزها ويرتحني منها، أما باش ترضى يا ذنوبي.

كنت أنظر إليها فقط دون تعليق كأنني أؤمّن على كلامها ودعائها، لإدراكي التام أن لا أمل في موافقتها، كأن الآخرين أحسوا بارتياحي لموتها، ربما هذا ما يُبرر إعراضهم واتهامهم. بل أكيد هذا

هو سبب إعراضهم عني في الجنازة، عيون المجتمع لا تنام بل أكثر من ذلك، هي يقظة أكثر من اللازم،ر حتى وإن بدت في لحظات كثيرة أنها نائمة.

بعد مرور العام تزوجت، كأنني أعُد الدقائق والساعات لأُتَوج بأكاليل السعادة. هل ما رأيته وحلمت به وقتها كان مجرد سراب في يوم قائظ؟

أرادت ألفة أن يكون عُرسنا فخما وأنيقا في فندق خمسة نجوم «الليالي الملاح»، ارتباطي بهذا الفندق ارتباط غريب، شَهِد كل قذارتي باعتبار أن العرس لا يعدو أن يكون إلا جزءًا من هذه القذارة.

كان كل شئ مُستوردا. فستان زفاف ألفة الذي زادها جمالا وروعة. لكنها بدت كأميرة بدون حاشية لا جذور لها. كانت صورتها وهي تتوسط أمها ووالدها وإخوتها صورة ناشزة، بل رأيت نظرات الاستغراب والاستهجان في عيون أصدقائي ممن دعوتهم.

عائلتها تصرفوا في العرس كالهمج، لم يراعوا أبدا أدنى مستوى من مستويات اللياقة. يأكلون بأيديهم بنهم الجياع، يشربون الخمر من الزجاجة مباشرة، أشياء لا يمكن أن تتصورها ولن تراها في فندق كهذا في ذاك الوقت وذاك الزمان بالذات. بعد ذلك بأعوام قليلة رأيت ما هو أتعس.

الذي نفرني من ألفة ليلتها هو فرحها وانسجامها مع الأجواء التي خلقها صخب عائلتها، بل شاركتهم إحدى رقصاتهم. وهم يحملونها ويصيحون بشكل جنوني.

أما في الضفة الأخرى أصدقائي ومن حضر من الأوساط الراقية.

كأنهم مستوردون لا تكاد تسمع الكلمات إلا وهي منمقة ومحشوة بكلمات فرنسية جلها استهجان لما يرونه. عرس بلا أبي وأمي، عرس حضرت فيه عائلتي كالأغراب. رأيتهم فقط عند دخولهم. لم آخذ معهم صورة تذكارية، لست أدري متى غادروا؟ دخلوا وخرجوا كأنهم ضيوف غير مرغوب فيهم. لم ينتبه إليهم أحد ولم يُزعجوا أحدا.

عُرس أخي الطاهر. أهي مصادفة أن يسرق مني أخي فرحتي دون تخطيط مسبق منه؟ كأن الأقدار تُسطر ذلك لحكمة أو لغاية أجهلها. صادف زواجه حصولي على شهادة الباكالوريا. كانت فرحة أبي لا تعادلها فرحة. ابنه البكر سيتزوج، عندما أعلمتهم بنجاحي لم يأخذ الأمر أكثر من نصف ساعة. كانت البخور والزغاريد كلها لأخي الطاهر. في ذلك الصيف أيضا تم قبولي في أكاديمية الشرطة، تحضيرات عُرس أخي الطاهر طغت على كل شيء. كأنني لا أسكن هناك، كأني غير موجود.

- بابا قبلوني في الأكاديمية.
- مبروك وليدي ربي ينجحك نكملو عرس خوك الساعة وتوا نفرح بولدي.

صورة أبي وهو يتخلى عن وقاره ويرقص في «حنة» الطاهر لم تفارقني قط.

أخي الطاهر اللغز الصامت. يملك كل مفاتيح أبي. هو أستاذ لمادة التاريخ تم تعيينه أول الأمر في مدينة الكاف، كان في العطل يقول:

- بابا برا ارتاح على روحك توا نقعد أنا في الحانوت.

عطلة كاملة دون كلل، وهو يبيع ويشتري لا فرق. كأنه لا زال تلميذا أو طالبا كما عهدته في السابق. سألته مرة:

- ياخي ما تفدش؟ ما تتفرهدش؟ ما تحوسش؟ عندك العطلة الكل وأنت مغروس لهنا.
- بابا تاعب ماعادش ينجم. يا صالح لازم نعاونوه والحانوت زادة ما عادش تعطي كيما العادة.

أما القصة كما يحكيها أبي. تُعطي معنى آخر وصورة أخرى مختلفة تماما عما يحكيه أو يخفيه الطاهر.

- ولدي الله لا تخليها بيه. يحب يعطيني شهريتو كاملة نقلو لا وألف لا، يقُلي الحانوت ما عادش كي قبل بابا، خوذ بابا راهي فلوسي فلوسك.
- مستورة ولدي مستورة، شهر ناخو وشهر لا، ونحلف الإيمان يعمل روحو يخدم في الحانوت، يعبيها سلعة وفي الليل يعطيني فلوس أكثر ملي باع بيه.
- هيا بابا البركة نتاع البيع اليوم.

الذين حضروا ليلة «الحنة» أكثر من أن يُحصوا. إكراما لأب العروس باعتباره إمام الحي وإكراما لأبي باعتباره عطار الحي. ذبحنا بقرة، كانت رائحة الكسكسى والسلاطة المشوية تملأ المكان، عزف السلامية والحضرة ورائحة البخور، أخي الطاهر في جبته «السكروتة» وأكتاف الشباب تحمله عاليا عاليا. والابتسامة لم تفارق محياه.

حرصت أمي أن تضع الحناء في أصبعه بنفسها. الشاي الأخضر والأحمر بالبندق. البقلاوة وكعك الورق، الكل فرح.

كان الفرح مِلْكاً للجميع، كلهم مخمورون. نساءً ورجال دون أن يشربوا قطرة خمر واحدة.

في عُرسي لا حناء، لا بخور، لا زغاريد أمي، ولا دعاء ورقص أبي، حتى الحضور كان كل واحد منشغلا بنفسه، كأنهم هنا لتأدية واجب ثقيل. عرس دون أبي وأمي.

في خمسة نجوم أنا. أ لا يمكن أن تُدخل الخمسة نجوم الفرحة إلى قلبي؟ أليس هذا ما أريده وما تحديت الجمع الغفير من أجله؟ هل كنت يومها سعيدا؟

تمنيت أن ألطخ إصبعي بالحناء. تمنيت أن أرى وجه أبي، تمنيت أن أُحمل على الأكتاف. لم يطالعني في الوجوه الحاضرة إلا وجه أمي الغاضب وهو يُعاتبني في صمت قاتل.

أمضيت ليلتي الأولى في كابوس مرعب، بل كان بداية لحياة مليئة بالكوابيس، ليلتها أصابتني لعنة أمي. يتراءى لي وجهها في كل الوجوه غاضبا صامتا، والأكثر إيلاما كان دامعاً. في حنة الطاهر امتلأ «الكنسترو» بالنقود أبي نفسه لم يصدق.

– ظاهر حنة مرضي الوالدين ما تكون كان هكا.

جاءت الهدايا بثلاثة أضعاف ما أنفقه أبي والطاهر. بعد أسبوع من العرس. عاد العروسان من شهر العسل. كانا جميلان حقا كأنهما خُلقا لبعضهما السعادة والرضا كانت ظاهرة على وجهيهما.

العادة في بلدنا أن يقدم أهل العروس والعروسة هدايا للعروسين يوم السابع. جاءت زوجة أخي محملة بهدايا عائلتها حيث تقتضي

العادة أن تكون الزيارة لبيت العروسة أولا. وبما أننا جيران. عرّج أخي وزروجته على منزلنا بعد أن تناولا الغذاء في بيت الإمام.

كانت تنتظرهما وجبة العشاء التي حرص أبي أن تكون فاخرة ومميزة. أخي الطاهر على عكس المتوقع. هو من صنع الحدث بطريقته العادية العفوية والبسيطة بعد العشاء.

– بابا هاذوم فلوس حجتك. وهو يقبل يديه ورأسه.

كأن الزمن توقف بأبي، كأنه تلقى صعقة لم يكن يتوقعها، لبرهة لم يتكلم، انهار من الفرحة، لم أره فرحا هكذا. كيف يملك الطاهر مفاتيحه؟ يعرف ما يُفرحه فيأتيه وما يُغضبه فيجتنبه.

– كان بودي أنت وأمي. لكن الله غالب. منحنيا على رأسها ويديها يقبلهما.

في الفجر وأنا عائد من احتفالاتي بنجاحي التي صنعتها وحدي برفقة أصدقائي.

لم أسمع دعاء كالذي دعاه أبي على أخي الطاهر. كأنه يُشهد الملائكة والنجوم والقمر على رضاه التام على ابنه. أكانت مصادفة أن أسمع ما سمعت؟ وأنا مخمور في حضرة الشياطين كنت.

أم كانت رسالة تجاهلتها؟ أم كانت شيئا آخر. مهما يكن. الشيء الوحيد الذي أثاره في نفسي وفي جوارحي ذاك المشهد. لم يكن إلا قطرات من الغيرة السلبية شرعت

في تغذية الحقد والكره اللامبرر الذي بدأت أُكنه لأخي منذ ذاك الوقت.

الغريب في الأمر. كيف للأحداث أن تقع هكذا كأنها تترصدي تُريدني ألا أفرح كما أريد أن أفرح. لم يذهب أبي إلى الحج تلك

السنة ولا السنة الموالية، عاكسته قرعة الحج. لا لم تعكسه هو، عاكستني أنا. عاكست أفراحي. ذهب في السنة التي سأتخرج فيها ملازم شرطة. نعم في تلك السنة ذهب أبي إلى الحج. ليعود ويموت هكذا وببساطة دون سابق إنذار كما كان يتمنى.

- الله يجيب الأجل غادي في هذيك الأرض الطاهرة، وإلا نرجع من غادي ومولى الأمانة يهز أمانتو.

هكذا كان يدعو منذ حصوله على معلوم مصاريف الحج.

حَجّ ليموت كما يقول وكما يتمنى. مات بعد أن تطهّر من ذنوبه. أبي الذي لم يزن ولم يسرق كان دوما يبحث عن الطهارة في كل شيء. ماذا سأقول آنا القذر العفن؟ هل يكفي الحج وحده ليطهرني مما أنا فيه؟ لا أعتقد ذلك، وإن كان الكثير من الناس يؤمن بذلك.

مات في الصيف الذي واكب تخرجي ملازم شرطة. ماتت معه فرحتي، لم أجد من أفرح معه ولم أجد في نفسي ذاتها رغبة في الفرح. كان الحزن يعم المكان.

حرص أخي الطاهر أن نحمل أنا وهو مقدمة النعش من المسجد حتى مقبرة الدندان، لم تكن المسافة بعيدة، لكنها كانت كلها مكتظة بمن جاء ليودع عمار العطار. عائلته، عائلة أمي، جلّ أهل الحي لم يتخلّف عن وداعه جلّ معارفه. عُرس آخر يُزف فيه أبي إلى مثواه الأخير. كيف يتخلفون عنه؟ وهو الذي ظل بيته مفتوحا لهم طوال حياته. أخاله أحيانا فندقا لذوي الحاجات والمصالح الإدارية في العاصمة من عائلة أبي وأمي على السواء.

لم أستطع أن أُحدد ما أنا فيه. صعقني موته، دموعي تخونني، تستعصي عليّ. حتى المعزّون قليل منهم من عانقني بشكل حار، استأثر أخي الطاهر بكل شيء. لا تسمع إلا:

– وينو سي الطاهر باش نعزوه؟

طبيعي أن يكون الأمر كذلك باعتباره الابن البكر والملازم لأبي. ولكن أ لم أكن أستحق التفاتة أكثر من ذلك.

ما معنى أن تكون ابنا لأحدهم؟ أ يكفي أن تنحدر من صلبه؟ لا أعتقد أن ذلك يكفي. ما كان يجمع أخي الطاهر وأبي يُجسّد –بكل ما تحمل الكلمة من معنى ووضوح لا لبس فيه– معنى الأبوّة والبنوّة. تمتزج فيها أشياء غريبة، صداقة من نوع عجيب. فَهْمٌ خارق لاحتياجات الآخر وانتظاراته دون أن يتكلم. يعرف ما يريد منه. من نظرات عيون كل واحد فيهما حريص على أن يقدم للآخر أفضل ما عنده. لا يمكن أن أقول إن الغيرة التي تحولت إلى حسد لم تتسرّب إلى قلبي.

هل كان أبي يكرهني؟ أبدا، أنا متأكد من ذلك، أنا الذي لم أكن أحبه كما يجب أن يحب الابن أباه. لم أتعلم، أو بالأحرى لم يعلمني أحد كيف أحب الآخرين؟ تربيت على أنني الصغير المحبوب. أنا فقط من يجب أن يحظى بالحب أو هكذا فهمت.

مات أبي وأنا لم أقدم له أي شيء. تمنيت أن أشتري له جُبة، تمنيت أن أربت على كتفه وأقول له:

– أن الآوان أبي لترتاح. سأتكفل أنا بكل شيء.

تمنيت وتمنيت. كأنه رفض أعطياتي كلها بموته. حُرمت لذة العطاء للأب. لا أعتقد أنه هناك شيئاً أجمل من أن تقدم شيئاً بسيطا، تافها، إلى الشخص الذي قدّم لك كل ما يستطيع طوال حياته.

من لم يعرف تلك الفرحة في عيون الآباء بهدايا أولادهم يكون قد فاته الشيء الكثير. اسألوني أنا الذي رأيت أبي يطير جذلا بهدايا أخي الطاهر، اسألوني أنا الذي حرمني موته من التمتع بهذا الإحساس.

- خالي خالي لاباس شنو أحوالك؟
- مَروى تبارك الله كبرت إيجا ايجا بوس خالك.
- أهلا خالي. مرحبا، نهار كبير هذا، راهو عندك بلاصة في القلب وحدك قد ما تغيب، تبقى ليك وحدك، ما يملاها حد.
- ياسر عليَ الكلام هذا، هاك شاعرة، ولا دكتورة؟ ثبت لي روحك.. تبارك الله على بنتي والله فرحان بيكم برشة أنت وخوك سفيان، فرحان بنجاحكم أكثر ما تتصور.
- خالي أنت صنعت الأساس متاع النجاح هذا ولا نسيت خالي. بابا الله يرحمو كان ديما يقول هكا. يقول: مزية خالكم على راسي من فوق.
- لا. بنتي، ما تقولش الكلام هذا، نتوما ولادي وربي يعلم.

هناك راحة كبيرة ومُميزة تنتاب المرء عندما يعود ليَحيا بين جذوره. يُجالس من هم من دمه، مُختلفة كل الاختلاف عن مجالسة الأصدقاء والناس الآخرين، يميزها شيء آخر. كيف يكبرون هكذا فجأة؟ كيف يمكن لإنسان أن يُراقب هذا التطور في أولاده؟ فجأة. يكبرون، يتغيرون والأجمل. كيف يفكرون؟

لن أغفل عن هذه المتعة مُستقبلا، يجب أن أقضي وقتا أطول مع أولادي. أن أستمع إليهم، أن أفهمهم. أتمنى ألا يكون قد فات الآوان، أتمنى ذلك.

وجبة الغذاء في بيت فتحية كان لها طعم آخر. عادت بي لسنوات خلت. لماذا استسلمنا كل هذا الاستسلام للرياح الغربية؟ مَسّتنا في مَعِيشينا اليومي.

- كيف تحولنا هكذا؟

- أ لإننا نحب أن نكون كذلك؟

لماذا هذه الرغبة في التنصل من كل ما هو محلي؟ أ هو سيء إلى هذا الحد؟ ولماذا لا نشعر بالسعادة والمتعة إلا في ذكراه أو اللقاء به؟ من مأكل ومشرب ومغنى ورقص. كل شيء.. قد نتفاعل مع أغنية غربية، قد نعشقها. لكن لا نستطيع أن نذوب فيها، أن تُخرجنا من وقارنا، أن تتلاعب في الداخل بأحاسيسنا. أن تُلامس ذاك الشيء الذي لا ندري ما هو بالضبط؟ كما تفعل أبسط الأغاني التي تعود وتعبر عن جذورنا.

تفعل ذلك لأنها ببساطة تعيش في داخلنا. لماذا بدأنا نفقد القدرة على رؤية الجمال في أشيائنا؟ لماذا تخلّينا عنها هكذا فجأة؟ لماذا يرى الغربيون هذا الجمال الذي عجزنا نحن عن رؤيته؟ يَرَوْنه فيما نظنه نحن تافها، لا وزن له. يدفعون مبالغ مالية للحصول عليه. متى نستطيع أن نتمتع وندرك جمال أشياءنا ونطورها هي وليس غيرها؟

بعد وجبة الغذاء انفردت بي فتحية. طالبة مني ألّا أتهور لأن حسب مفهومها لا مجال للتهور في وضع كالذي أعيشه، مُبدية

اعتذارها عن عدم مرافقتي لأنها في انتظار قدوم ابنها سفيان اليوم من فرنسا.

- شنو فتحية مازلت في الثانوي فاصع باش تأخذ لي بطاقة دخول كي العادة.
- إيه مازلت صغير قد ما تكبر تبقى في عيني صغير والله لولا مْجْيّتْ سفيان لا نخليك تمشي وحدك بالله عيش خويا خمم في وليداتك من غير فضايح يعيش خويا.
- كوني متهنية والله، توا بالي مرتاح وغالبا باش نرجع نسلم على سفيان ونعدي بحذاكم أيامات.
- مرحبا وألف مرحبا، سبحان الله سفيان قالي لازم نشوف خالي لازم. أما يعيش خويا هنيني كلمني بالتيلفون باش نقعد متحيرة.

الفصل 6

بيت العنكبوت

﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾
آية قرآنية

لم تكن المسافة بين شقة فتحية ومنزلي بالسيارة تستغرق أكثر من دقيقتين. منزلي، نعم منزلي الذي لا يمكن أن يكون كذلك بحال من الأحوال. ليس لأن الخيانة دنسته أو لأن نصفه سيصبح ملكا لألفة بعد الطلاق بناءً على قانون مدونة الأحوال الشخصية في بلادنا. حيث اخترنا في الزواج نظام الاشتراك في الملكية.

منزل فخم هو حقا. بل يمكن أن يُسمّى قصرا صغيرا. مساحته الإجمالية ستمائة متر مربع. حصلت عليها بثمن رمزي. هذا الامتياز الذي يتمتع به جُل خُدام الدولة الكبار. المتر مربع في هذا المكان ثمنه للعموم قُرابة ألفي دينار بينما نحصل عليه نحن أو من ابتسم

لهم الحظ بدينار فقط للمتر الواحد. نملك بعد ذلك حق التصرف فيه كيف نشاء، بالبيع، بالبناء...

كيف تم بناء هذا القصر؟ قد يتبادر للذهن أن بناء قصر قد يكلّف أموالا طائلة، هو فعلا كذلك للعموم، لكن نحن خُدام الدولة لا يُكلفنا بناء قصر شيئاً كبيرا. ربما توقيع على ورقة بيضاء تُسند فيها بناء مجموعة من المشاريع لفائدة الدولة إلى مقاول بالسعر الذي اقترحه هو. ولتذهب كل المناقصات الشكلية إلى الجحيم، نحن من يُحدد بوسائلنا الخاصة المستفيد، حيث سيشمل ذلك بناء المنزل وربما اكتمل بناء المنزل الخاص قبل أن يكتمل بناء مشاريع الملك العمومي.

منزلي يطل على شارعين تُوجد فيه جميع مرافق المنزل الحديث. مسبح صيفي والآخر شتوي. حديقة معشبة، أشجار متنوعة، مخزن تحت الأرض لا أدري كيف يمتلأ؟ تأتي كل أسبوع سيارة محملة بكل ما لذ وطاب ليرضى صاحب السعادة.

التجار ورجال الأعمال الذين نُسهّل لهم أعمالهم ونحميهم، يحرصون كل الحرص على جعل حياتنا أكثر من مُريحة، نحصل على ما نريد بأثمان رمزية إن لم أقل بالمجان، دون أن يمس ذلك من المبالغ التي تُودع في حساباتنا البنكية المموّهة. منزلي فيه كل مقوّمات المتعة.

- هل تمتعت فعلا؟

سافرت إلى بلدان شتى دائما في مهمة، زُرت كل بقاع العالم المشهورة. ولكنني عندما استرجع الأعوام العشرين الأخيرة من

عمري تتملكني الدهشة من الفراغ واللا جدوى والقذارة التي كانت تسود حياتي.

يقولون إن من ركائز السعادة وراحة البال. نقاء الذاكرة وخلوّها من كل ما هو مُشين. ذاكرتي كلها شوائب، لا توجد فيها إلا القذارة. القذارة لعشرين سنة خلت هي برنامجي اليومي. في الصباح قد أتلقى مكالمة من قاض أو رجل أعمال آو محامي أو أو أو.. السيد فلان يوجد عندكم في الدائرة كذا وكذا ملف كذا وكذا هو كذا وكذا نريده أن يصبح كذا وكذا ستجد غدا في حسابك كذا وكذا.

وهكذا دواليك ينتهي يوم ليبدأ الآخر، النسق نفسه، الوتيرة نفسها في خدمة الذات. ينتهي يومي دوما بالشراب الروحي ومضاجعة جسد أنهكه التعب يبحث عن بعض الدينارات ليُواري جوع أفواه مفتوحة أو يكسو أجساد عارية مُكبلة وإرادة ميتة، قذفت ببعض جسدها إلى السوق ليُباع ويشترى في سوق النخاسة الجديد. تقتات منه. أفواه تعيش على فروج النساء بدافع الفاقة والعوز. بينما نحن نقتات على دموع الأبرياء بدافع الطمع والجشع. أتوجد قذارة أبشع من هذه؟

أهم شيء موجود في منزلي، زوج خائن وزوجة خائنة. وأبناء مستعد الساعة أن أدفع كل شيء. كي لا تصيبهم اللعنة التي أصابتني، أدفع كل ما أملك لأقِيهم لعنتي التي انتقلت عدواها إلى زوجتي. أن تقف هذه اللعنة هنا. ألّا تمتد جذورها إلى أولادي، تُستأصل بكل حكمة وَرَوِية. نعم، كفى قذارة. لن يأكل من اليوم أبنائي أكلا مختلطا بدموع الأبرياء. المغلفة بغلاف الهدايا المسمومة..

دخلت من البوابة الخلفية. استغرب الحارس مجيئي في هذا الوقت لكن استغرابه كان أقل بكثير من استغراب الخادمة.

- وين ألفة؟

- خرجت سيدي، خرجت من قبيلة بركة هي وأختها الصغيرة. نحضر ليك الفطور سي صالح؟

- لا لا يعيشك مريم. والأولاد وينهم؟

- مازال ما روحوش.

صعدت إلى غرفة النوم والظرف في يدي، كنت قد خططت سيناريو المناقشة. سنفترق بهدوء لمصلحة الأولاد. سأواجهها بصورها وشريطا السينمائي، سأتلذذ قليلا بتعذيبها. تنفست الصعداء لأنني لم أجدها. ما كنت لأُسيطر على أعصابي عند رؤيتها، ربما مع وجود الأولاد في البيت سأكبح جِماح غضبي، على الأقل لن أجرؤ على ضربها وإهانتها أمامهم. خيرا فعلت بخروجها.

يجب أن نفترق بهدوء كما قالت فتحية. سنفترق وبعد ذلك سأتفرغ لذلك القرد، سأنسف به الأرض، سأجعله يتمنى لو لم يولد.

غيّرت ملابسي. استلقيت على السرير وشغلت جهاز التخزين الآلي لكاميرات المنزل. لم أُشغله منذ وقت طويل وحتى إن فعلت لا يتعدى الأمر أن أنظر بشكل موجز خمس دقائق لا أكثر. الآن سأتفحصه حتى تعود، أكيد سأجد شيئا ما.

أدخلت الرقم السري لأرى ماذا تفعل بغيابي الخائنة. بدأت المشاهدة على التلفاز المربوط آلياً بنظام «الوايفي»، هناك شيء يجعل هذا المنزل بالإضافة لما سبق ليس منزلي. إنه منزل لعائلتها،

كلهم هنا. أبدل الأيام الشهور لا تطالعني إلا صورهم وتحركاتهم. يأكلون، يلعبون، يمرحون. أمام المسبح والمشوى... إنها خير مني، ساهمت في تعميق بُعدي عن عائلتي لتتمتع هي كل يوم بصحبة عائلتها. لا. لا، أنا الغبي، كنت أبحث عمّن يُزين لي ما أريد. كنت أرى في عائلتي الضمير الذي هربت منه.

ماذا؟ ماذا؟ آلفة تكتب هذا شيء غريب. استرعى انتباهي دفترها وهي تكتب وتضعه في الأخير في صندوق أثري للزينة في الصالة الكبرى. تمويه جيد، سيطر عليَ فضول جامح. ربما سأجد في هذا الدفتر ما عجزت عن إيجاده في ذاكرة الكاميرات اللعينة للمنزل. اتجهت مباشرة إلى الصندوق، أحضرت الكراس الذي يوحي مظهره بالقِدم. عدت إلى سريري وبدأت أقرأ، كان هذا كل ما أبحث عنه.

الفصل 7

القلب المهجور

«أشياؤنا تموت مثلنا لكنها لا تُدفن معنا»

محمود درويش

عدت إلى المنزل. لم يظهر فارس الأحلام المنتظر بَعد. الفارس الذي أعقد عليه الآمال لينتشلني من عالمي الفظيع الذي كلما أردت أن أهرب منه ازداد تشبثا بي. سئمت حياة الفقر، سئمت العوز، الاحتياج، سئمت كل يوم همزات أمي وسخريتها وأنا عائدة من عند فتحية.

- رجعت، في بالنا جا الفارس وهزك فوق حصانو الأبيض، ولا شي، كيما مشيت كيما جيت؟ لا نسيت، ما تقوليش تعلمت الطريزة.

تستطرد وتكمل الموال نفسه كل يوم، لم تتعب منه أبدا. كان خوفها من إعادة التجربة نفسها مع الصنف نفسه من الرجال يُخيفها،

يُرعبها، تتكلم بعفوية تامة بدافع الخوف. وهي لا تعرف أنها تغرس بكلامها في قلبي سكاكين حادة.

- يا خوفي يا ألفة ليصير ليك كما صار في القرية التي اضطُررنا إلى الخروج منها لأنك لا تستطيعين العيش مع ذكريات هجر الحبيب الأول.

- يا ترى هذه المرة ستتنحرين قبل أن نضطر إلى البحث عن مكان آخر؟ ارحمينا بنيتي.

أُصر على الجواب نفسه وعلى التحدي نفسه دائما. لن أفشل هذه المرة ولن أرضى بمن يريدون خطبتي. هذا في شركة، هذا موظف بسيط، هذا عسكري..

- يزي من المزيرية

لماذا تكون بنات الفقراء لقمة سائغة لمن هب ودب؟ لن أتزوج إلا من الصنف الذي أحبه، الذي يهواه قلبي وتطمئن إليه نفسي. لن أتزوج لأشبع رغبتي الجنسية بينما جسدي عار وبطني جائعة.

لن أعيد تجربتي الْمُرة هناك، أمي اطمئني. لم أعد أفكر بقلبي المهجور، ذاك عهد مضى مع إسكندر. نعم كانت صدمة كبيرة لا أنكر. ابن كبير القرية.

شاب وسيم يمتلك كلّ مقوّمات الفارس، يكبرني بأربع سنوات، طرق باب قلبي وأنا أدرس في السنة أولى ثانوي. في السادسة عشر من عمري. زهرة تتفتح براعمها. طرق بابي ووافقت. وكيف لا أوافق وهو حلم وحديث كل بنات القرية. محظوظة أنا بحب حبيبي. استمرت العلاقة أكثر من أربع سنوات. الكل كان يعلم. أمي كانت تشجعني من جهة وتحذرني من جهة أخرى. استفدت من

تشجيعها ولم أستفد من تحذيراتها أبدا. كانت رغبة الجسد وسلطته وهو في أوج عنفوانه أكبر مني ومنه. قابلته أينما يريد ومتى يريد. أعطيته كل ما يريد. أصبح القاصي والداني في قريتنا الصغيرة يعرف قصتنا وعلاقتنا.

– إذا ما خذاكش وعرس بيك بنتي. أنسي العرس في الدشرة هاذي، انسيه جملة فاهماني.

بدأت أكبر، بل أنضج وأدرك ما أنا فيه. فقر وعار. تذكرتان قادرتان على بعث أي فتاة إلى أحد المواخير والقذف بها في عالم البِغاء دون رحمة.

بعد تخرجه بدأت حملة الضغط. أطالبه بالتقدم على الأقل لخطبتي ريثما أكمل دراستي ونتزوج. لم أطلب الشيء الكثير. خطوبة، كلمة، خاتم قصدير أضعه في إصبعي. يقيني استفسارات وهمزات الناس ونيرانهم القاتلة.

– محسوب توا ياخذها دْوِيوْ.

– إسكندر. تقدم بالله كلمة من بوك أمك، خاتم مايسالش فضة نحاس لي يجي، وجهي تقشر قدام الناس. وقتاش بالله؟

أصبحت لقاءاتنا عذابا. يفرض فيها العقل مكانه، غابت سلطة الجسد لتترك للعقل مساحة لعله يجد شرعية لعبثية النفس والجسد. غابت القبلات، غاب ذوبان الجسد، أصبح اللقاء كله حوارا، تخطيطا، استفسارا. ماذا بعد الحب؟

كان دائما يجد عذراً ليتملص، يُعطي موعدا لا يَفي به، وأنا أُصر. بعد ذلك.

- حبيبتي نسافر عام للخارج، نستقل ماديا ندبر خدمة نجي نعرسوا نهزك معايا وراس حبي.

ودعته في المطار بالدموع والقبلات مصحوبة بالأمل. ولا شيء غير الأمل. أتاح لي غيابه في ذلك العام. النجاح واجتياز الباكالوريا، لولا فسحة الأمل تلك لرسبت، لضُعت، لتشردت. أحيانا نحتاج فرصا مثلها رغم إيماننا العميق أنها لا تعدو أن تكون كذبة. نحتاجها لنُرمم بها ما تبقى من شظايا آلامنا وأحزاننا.

- اكتبلي حبي كل يوم، كل دقيقة لا أستطيع أن أعيش دون سماع أخبارك.

- هذا كلام عام بركة اصبر ويوفا كل شيء.

وفعلا انتهى كل شيء، لكن ليس كما تصورت، كما حلمت. انتهى كل شيء، انتهت معه أحلامي، انتهت معه ثقتي بنفسي لا بل ثقتي بالآخر.

لم يكتب لي كل دقيقة، لم يكتب كل يوم. ما أجمل الكلمات حين نقولها حين نُحملها معاني أكبر منها بكثير. وما أغبانا نحن الذين نصدق كل هذه الكلمات المحشوة بالحب في الداخل والمغلفة بالكذب والعجز.

- مستعد أنا حبيبتي لتحدي العالم من أجلك.

- أنت حياتي أنت حبي أنت..

يكونون في الأول شجعانا، فرسانا وهم يرتشفون رحيق فتياتنا، يجعلونهن يعتقدن أنهم سيخوضون حروبا من أجلهن سيتسلقون

جبالا سـ... سـ... وعندما يكون مطلوبا منهم فقط أن يُوفوا بوعودهم. يكتشفن الهم الهائل من الجبن والخسة في التنصل.

عندما تكونون عاجزين عن اتخاذ قرار في حياتك خوفا من المجتمع، من أمك، من أبيك. لماذا تحب وتدعي الحب إذن؟ لماذا تنتهك شرف الآخرين باسم الحب والشجاعة؟ لا توجد هناك امرأة «عاهرة» أبدا.

ستجد دائما وراء ذلك رجل خسيس. استغل نُبلها وحبها أبشع استغلال. المرأة عندما تُعطي جسدها لأول مرة. تُعطيه باسم شيء نبيل، شيء سام، تعطيه باسم الحب. لا تنتظر مقابلا أبدا، بل لا تأخذ لنفسها ضمانات على ذلك.

لكن عندما تلسعون هذا القلب، عندما تطعنوهن بلا رحمة وتبعثون كل دقيقة، كل ساعة، بمئات الفتيات إلى الجحيم، إلى المواخير لا تستغربوا أن تنبري بعض النساء من اللواتي استطعن أن يتحملن الصدمة ويصمدن بأن يفعلن بقلوبكم ما يشأن. لأنكم تستحقون ذلك وأكثر.

إن مشكلتنا وأزمتنا الحقيقية هي غياب الرجولة. الذكورة هي المسيطرة على الطابع الرجالي في مجتمعنا، وهناك فرق شاسع بين مفهوم الذكورة والرجولة، فرق شاسع. حبيبي الذي أحببته واعتقدت بغبائي أنه فارس أحلامي لم يكن رجلا، كان ذكرا فقط.

تلقيت رسالة أو رسالتين، كلها كلام إنشاء. أوروبا ليست كما يُروج لها وأن وأن... وأن... كأني كنت أنتظر أن يبني لي قصورا.

في لحظة كتلك كنت أبحث عنه هو فقط، على أن أكون معه، كان هذا أقصى ما كنت أحلم بها وقتها.

عاد لكنه شخص آخر، لم أعرفه بل تساءلت. كيف لإنسان أن يتبدل هكذا؟ أن تصبح الابتسامة غير الابتسامة. أن يصير الحديث غير الحديث. هو كان هكذا دوما. أنا الغبية التي لم تكن ترى بعينيها، بعقلها، وعندما أبصرت أبصرت شيئا مختلفا تماما عن الشيء الذي أحس به قلبي وجسدي المتعطش للحب. عاد ليخبرني ببساطة كأنه يلقي خطابا أو كلمة في جمعية خيرية.

- آسف لا أستطيع أن أتحدى أبي وأمي سوف أتزوج الفتاة التي اختارها أهلي.

لم يكن خطابا بل موعظة دينية كلها بر بالوالدين. لم يكن من حل أمامي إلا البكاء. والبكاء ملاذ العاجزين. صرت أحفظ كل أغاني نجاة الصغيرة من «ساكن قصادي». لكن أغنية في «وسط الطريق» هي المرافقة الفعلية لرحلة بكائي وعذابي تلك. كل الفتيات اللواتي عشن التجربة نفسها أو أقرب منها، وحدهن فقط يستطعن أن يعرفن معنى الألم الذي أحسسته. معنى الإحساس بالضياع، بالتلاشي، وحدهن فقط يعرفن أن الرغبة في الموت في الانتهاء تكون هي المسيطرة في مثل ذاك الوقت. فقدت الإحساس بكل شيء. الطعام أصبح مذاقه غريبا بعيدا كل البعد عن اللذة. لا تسألوني عن النوم، كان كله كوابيس. الرغبة في الحياة كلها لم تعد موجودة، فكرة واحدة ظلت تفرض نفسها بإلحاح. أن أموت، أتلاشى، كرهت حياتي...

- آسف ببساطة هكذا.

لم يلتفت إليَ حتى. لم أر نظرات الحزن في عينيه. بل ربما كان سعيدا، فحلا هو كان. غزا جغرافية جسدي، كلما تذكرت عبثه بتفاصيل جسدي، تنتابني قشعريرة. أصبحت إبرا تخزني بعدما كانت إلى وقت غير بعيد تنقلني إلى عالم المتعة واللذة. غبية أنا كنت. كرهت جسدي، كرهت أنوثتي، كرهت كوني امرأة، تستجدي الحب من الآخر.

كرهت القرية بمن فيها. قرية الكاهنة هنا كانت تسكن، لازال صدى صوتها يعم المكان، لازالت لعنتها تتجول ليلا لتُصيب سيئة الحظ مثلي. هزل جسمي. بل هددت أبي وأمي بالانتحار إن لم ننتقل من قرية النحس تلك. لن أتحمل نظرات الشماتة في عيون الآخرين.

- مسكينة. لعب بيها لين شبع مشى وخلاها، مهبولة في بالها باش ياخذها.

نظرات الاستفسار، طلبات الشباب بأنني أصبحت مُلكا مشاعا بينهم فريسة لرغباتهم. لن أتحمل أن أراه يزف لأخرى.

مسكين أبي حمّلته أكثر ما يستطيع. لم يكن أمامه من خيار وهو يراني أموت كل يوم أمامه. إلا الإذعان لرغبتي. رغم تأكيده المسبق بأننا سنكون كالمتشردين في المدينة لاحتياجاتها الكثيرة ولنسق عيشها المرتفع.

بالإضافة إلى راتبه التقاعدي كعسكري. الذي لن يكفي لمتطلبات الحياة في المدينة حسب قوله.

- أرجوك أبي سأشتغل في العطل لن تندم.

أمي المسكينة ساندتني رغم أنها ستخسر موردها المادي البسيط الذي يدره عليها عملها «كحنانة أعراس القرية».

لا يرقى إلى مستوى العمل. لكنه كما تقول يدُر عليها ما يُغنيها عن العراك مع أبي الذي لا يفهم ولا يهتم أبدا باحتياجاتنا النسائية الحساسة والضرورية.

هو لا يريد أن يفهم كما يقول ليس لجهل منه بل لأن «العين بصيرة واليد قصيرة» أبي المسكين الحنون.

ساندتني أمي، لم تتحمل أن تراني كما أنا، شاركتني هي وأخواتي آلامي وأحزاني. بكين معي لليالي طوال، واسينني. لم أجد أحدا غيرهن، غابت نظرات العتاب من عيني أمي، حلت محلها نظرات الحب والعطف. كلماتها لن تُمحى أبدا من ذاكرتي، نُقشت داخل قلبي استمدت منها القوة والعزيمة لأناضل، لأقاوم، لتلتئم جراحي.

- أنت بالدنيا عندي، بنتي تصير ليك حاجة نموت، إن شاء الله نهاري قبل نهارك، عيش بنتي كولي على خاطري، على خاطر أمك لي تحبك، على خاطر خواتك، بوك باش يقتل روحو، على خاطرك انت، الله لا تربح لي كان السبب، الله لا تفرحو، ربي ينغص عليه حياتو كيما نغص علينا حياتنا.

كلمات بسيطة تافهة. لكنها نابعة من القلب. يقولها اللسان بعفوية وتؤكدها الدموع المنهمرة من العينين وتعطيها القبلات والعناق وحضن الأم والأخت وتضامن الأب بعدا إنسانيا وجمالا يجعل منه قوة تجعل من الجرح، من الألم، شيئا خفيفا، شيئا

نستطيع أن نتجاوزه كلنا مع بعض لأننا عائلة واحدة، مُصابنا مُصاب واحد، جُرحنا جرح واحد. رغم فقرنا، رغم عوزنا، لكن قلوبنا غنية بالحب، غنية بإحساسنا ببعضنا بعضا. هذا الذي لم يفهمه زوجي ولن يفهمه أبدا.

غادرنا القرية ليلا. نحمل متاعنا البسيط والمُخجل، هاربين من قصة حب تحولت في غفلة مني، بغباء مني، بسوء تقدير واختيار إلى عار. عار يُلاحقني يُلاحق عائلتي دون ذنب اقترفته. تحولت فجأة إلى عار.

من ظننته يوما فارسا لأحلامي. لم يكتف بذبحي، بقتلي. بل جعل من قصة حُبنا. فيلما، مغامرة يرويها كلما بلغت به النشوة مداها في كل مقاهي القرية. يرويها باعتبارها حربا غزا فيها فرجي واعتلى جسدي. يحكيها بتفاصيلها وبجغرافيتها وتاريخها. أصبح روّاد المقاهي يعرفون كلّ تضاريس جسدي. يعرفون فرجي يوم المعركة كان حليقا أم لا. يعرفون كيف تأوهت. كيف امتزج تأوهي بالألم واللذة. من ظننته يوما فارس أحلامي يسرد معركته منتشيا بانتصاره، والآخرون يستمعون إليه باندهاش كبير وهم يتصورون قوة السيف الذي فتح بها عمورية من جديد وأعاد مجد العرب في الأندلس وفلسطين. إنجازات ذكورنا تقتصر على غزو فروج بناتنا. دون أن يعرفوا أن هناك ذكرا آخر في مقهى أخرى. يسرد غزوه ربما لإحدى بناتكم، أخواتكم، وربما زوجاتكم.

أنت أيها الوغد الحقير لم تسلبني شرفي فهو أسمى أن تجسده قطرة دم في مهبلي. أنت سلبت شيئاً يخص رجلا آخر في لحظة

ضعف اعتقدته أنت. وربما هو الآن يقوم بسلب ذلك الشيء من فتاة أخرى. كن متأكدا أنه سيأتي من يسلبك شيئا تحبه. طال الزمان أم قصر سيأتي ذلك اليوم. وغد حقير.

وداعا أيتها القرية، سأنساك، سأمحوك من ذاكرتي. سأعتبرك «موكاندو» جديدة، «موكاندو» يشك المرء أ كانت فعلا أم لم تكن. سأهرب ما استطعت، سأهرب من لعنة فرجي التي أصبحت عارا. سأهرب كما هربت «أرُوسُولا» من لعنة فرجها فصنعت له قُفلا أمام زوجها كي لا تصيبها اللعنة فتلد خنزيرا. هربت هربت مائة عام لكن اللعنة أصابت فرج حفيدتها جعلتها تستسلم لرغبة مُحرّمة شنيعة وجارفة فولدت خنزيرا. أنا لم ألد خنزيرا، لكن في المقابل تحوّل الحب في عيني، في قلبي إلى خنزير ملوّث وقح قبيح. أقسم بشرفك الضائع أيها الفرج اللعين. ألّا يغزوك بعد الآن أحد وألا يعتلي صدرك أحد ما لم يدفع مهرا كبيرا يُنسيني ويُنسي عائلتي المسكينة آلامها وينتزعها قسرا من جذورها. هروبها ليلا تحمل معها عارها، آلامها، أحزانها، خوفها من المجهول. هاربة من أعين وملاحقة الآخرين. وداعا أيتها القرية، وداعا أيها الحب. فلتمت هنا أيها القلب في هذا المكان المهجور. وحيدا ستظلّ إلى الأبد، من هنا فصاعدا أحتاج معي عقلي، عقلي فقط.

الفصل 8

النزوح المر

«تترك وطنك فقط حين لا يترك لك الوطن مجالاً للبقاء»

بمساعدة أحد معارفه في مدينة تونس العاصمة. وجد أبي في حي النخيل بمدينة «الدندان» منزلا صغيرا يصلح سكناً للطلبة وليس لأسرة. يتكون من غرفتين ومطبخ صغير وبيت راحة مع دش. غرفة لأبي وأمي. وأنا وإخوتي ننام في غرفة الجلوس ونستعمل دولاب أمي لأغراضنا وملابسنا. أية ملابس...؟

كانت الحياة أصعب مما تصورت. استُقبلنا في الحي كأننا طفيليات. بنظرات مختلفة ومتناقضة. الأولى تنم عن الشفقة والأخرى عن الاحتقار. كرهت كل النظرات باعتبارها تصب في المصب نفسه. الإحساس بالدنيوية.

هذا العالم يُقيّم الناس بما يملكون فقط. يكفي أن تكون غنيا، لن يسألك أحد عن جذورك، عن مصدر ما تملك، كل هذا يصبح

في خبر كان، أمّا أن تكون فقيرا فأنت متهم مسبقا في كل شيء. في شرفك، في أصلك، في كل شيء، بل أنت ملك مشاع للجميع.

نظرة الشهوة التي ينظر إليَ بها الآخرون مختلفة تماما عما هو عليه الحال في قريتنا أو في القرى بصفة عامة. هنا تكاد الأعين تأكلني، تفترسني. لا أنكر أنني أتلذذ بذلك. لكنها تبقى في الغالب نظرات وقحة تحمل الكثير من الجرأة. أكثر بكثير مما اعتدت عليه.

في القرية تحس أن هناك من ينظر إليك بشهوة صحيح، لكنه يبقى حريصا ألا تُدركي ذلك، تجعلك فقط تحس بتلك النيران تخترق جسدك محمّلة بذرات الرغبة الجامحة، ما إن تلتفتي إليه حتى يخفض بصره في الغالب طبعا.

هنا يكون الناظر حريصا كل الحرص أن تدركي أنه ينظر إليك بشهوة بل أحيانا يصاحبها بكلمات نابية مخجلة ولا يكترث البتة بمن يسمع من المارة كأن الأمر لا يعنيه. بل كأنه يمارس حقا من حقوقه، والأغرب أنك لن ترى علامات الاستفهام والاستنكار أو الاستهجان ممن كانوا بالجوار وسمعوا ما قال. لا لن ترى إلا الابتسامات وكأنهم يؤيدونه، يشجعونه. نعم لقد أحسنت الوصف. استمر.

– مالا ت...ة شيء كبير ياعمري ز.... يفتق.

اكتشفت جمالي. أعدت تقييمه من جديد. جميلة أنا ببشرتي البيضاء الصافية، بعينيّ العسليتين، بشعري الأسود الطويل، يتماشى مع طول قامتي. جميلة أنا في كل شيء. رأيت ذلك في عيون أكثر من واحد، نساءً ورجالا. اكتشفت أنّ للجمال تأثيرا وقوة هنا أكثر

بكثير من القرية. يجعلك في مأمن من أكثر الأسئلة إحراجا، في الأول بطبيعة الحال على الأقل. يكون هو كافيا ليفسح لك مكانا ولتمُنح لك فرصة.

– وين تسكنو؟

– فاش يخدم بوك؟

إلى غير ذلك. لا يمر يوم دون أن أتلقى طلبا بعلاقة. بل هناك من أبدى رغبة في طلب يدي. لكنني دائما أصد، لم أجد بعد ما أبحث عنه.

لم أشتغل في الصيف ولا غير الصيف، لا أنا ولا أمي، أبي المسكين من دفع ثمن فاتورة نزوحنا المرّ القسري. كان الأمر يفوق كل تصوراتنا. هنا تمشي الأمور بقوة الدفع، لا تملك الخيار ولا تستطيع أن تقاوم. ستنهار في الأخير، لا يمكن أن ترى كل تلك المطاعم وتبقى مكتوف الأيدي، لا يمكن أن تقاوم في رأس السنة الميلادية «كعكة القطو»، تستطيع أن تقاومها سنة، ولكن لن تستطيع أن تداوم على ذلك. الأعياد في المدينة فقدت رمزيتها، لم يعد لها إلا طابع مادي محض، حتى الدينية منها فقدت جانبها الروحي، وأصبحت أعيادًا للأغنياء.

اضطُر أبي للعمل حارسا ليلياً في إحدى الشركات، لم نعد نراه إلا أيام العطل، يعود في الثامنة صباحا ويغادر الثالثة بعد الزوال. منظره كان يثير بداخلي شجونا كثيرة لإحساسي بأني المسؤولة على ما هو عليه. دفع ثمن نزواتي، ثمن قبلاتي، ثمن عبث الذكر

بجسدي، دفعه أبي المسكين. كنت أنا أتأوه من اللذة وأبي المسكين الساعة يتأوه من الفقر، من العجز، من الذل، مخلوقة بشعة أنا.

الذكر الذي تحدّيت من أجله التقاليد والأهل ودُست باسم حبه على كرامة أبي. يتلذّذ مع امرأة أخرى. بينما أبي كالشمعة يحترق بصمت، يحترق لينير لنا دربنا المظلم في زمن لم تعد فيه الشموع تنير الدروب. أبي يحاول أن يبعث باحتراقه بصيصا للأمل تظل نسبة نجاحه ضئيلة جدا.

كانت أول مرة أرى فيها صالحا بقرب حانوت عمار العطار الله يرحمو، هكذا يُشير سكان الحي لدكانه التي اكتراها منهم شخص آخر. صالح شاب وسيم وجهه يفيض حيوية واعتدادا ظاهرا بالنفس. بساطة تنم عن ذوق رفيع. متعجرف ربما كثيرا. قال لي صاحب الحانوت الذي كانت ضحكة واحدة كافية ليمدني بكل التفاصيل.

– هذاك ملازم في الشرطة، أما ما يلبسش الكسوة يقولوا عليه حنش كل مرة يجيب كرهبة كل وحدة تنسيك في الأخرى.

عرفت أن صاحب الحانوت يريد الارتباط بفتحية لكن الأخيرة تمنعت لأنه حسب قولها «قعر» وضيع.

– قالت أنا، أنا ناخذك أنت. ناخو واحد جاي من ورا البلايك.. هذاك لي مازال.

– تصوري القردة هذيكا ما حبتش تاخذني نَايْ. الواحد ما عادش ينجم يعيش مع الحقارة هاذم، شبيني نَايْ نخدم على روحي وزيد موش هذي الحانوت اللي ربتهم؟ توا يتكبروا عليها.

تعرفت على فتحية. فتاة تجاوزت العقد الثالث من عمرها على قدر متوسط من الجمال بل بسيط، سليطة اللسان. رغم ذلك كان الاختيار لها، عنوستها ليست بسبب كساد في الأزواج. بل لأنهم لا يليقون بمقامها. خطبها أكثر من واحد لكنها كانت دائما على موعد لاكتشاف العيوب قبل الحسنات. في أي واحد لم تجد بعد المواصفات التي تبحث عنها. لو تقدم أي واحد منهم لأي فتاة في قريتنا لأقيمت الليالي الملاح. لكن الأمور تجري هنا على غير ما تجري عليه هناك. بين قرانا ومدننا هُوّة حقيقية. لم يُعترف بها بعد لكنها موجودة.

– النزوح متاع وذني عبو البلاد.

هذا ما يمكن أن تسمعه. كلمة نُزوح تعني على قدر ما أفهم وعلى قدر ما تستعمل. أننا مواطنون من بلاد أخرى اضطررنا للنزوح لأسباب معينة غالبا ما تتعلق بالحرب أو المجاعة. أما عندما تسافر في بلاد أنت تحمل بطاقة تعريفها وجواز سفرها وتسمى نازحا بالمفهوم المتعارف عليه الملتصق بالمجاعة والفقر. فهناك هوّة، وهوّة كبيرة، نازح تعني في بلدي مرادفات عدة. يمكن أن تصرّفها كيف تشاء وحسب الظروف تعني:

– «قعر» بدائي لا يعرف «الايتيكيت».

– «مقمل» فقير لايملك قوت يومه.

تعني أشياء وأشياء. تظل تلاحقك بهدوء حتى عندما لا تُقال أمامك تظل تهمس بصمت كأنها فحيح أفعى لا تشعر بها إلا عندما تلسعك. نازح أنت، متهم إذن حتى في طريقة كلامك. عندما تُحدد

فقط طريقة نطقك لحرف «القاف» هويتك ومكانتك بل وانتماءك، هناك هوة.

حرف «القاف» وليس ما يحمله كلامك من معاني وعِبر. لا. حرف «القاف» حرف مُهم في بلدي. إن تنطقه «قافا» صحيحا أنت ابن أصول أو ما يسمى «بلدي»، أي ابن بلد من الحواضر.

أن يكون «قافا» بإضافة نقطة ثالثة على الحرف فهذا يكفي لأن تعتبر بدويا جاهلا. المشكلة، حتى المثقفون المنحدرون من مناطق تنطق «القاف» بثلاث نقط تخلوا عن نطق هذا الحرف المسكين كما تعودوا أن ينطقوه. فجاء كلامهم كمشية الغراب. لا هو بمشيته ولا بمشية الحمامة.

شيء لا يصدق، أن يصبح سكان البلاد الأصليين الذين تشهد صخور وجبال ووديان هذه البلاد بانتمائهم لها. سقوا هذه الأرض الطيبة بعرقهم ودمائهم، أن يصبحوا نازحين في بلادهم، وأبناء النازحين الحقيقيين من أصول تركية وأوروبا الشرقية وأعراقهم مختلطة بعرق أجنبي. هم أبناء البلاد بل ويرمز لهم باسم «البلدي» أي ابن البلاد. وهذا لا يعني أيضا أن كل من ينطق حرف «القاف» بشكله الصحيح. ليس ابن بلاد، طبعا لا.

أسفر ذلك عن وجود أحياء بأسماء العائلات والعروش النازحة أو ما يسمى بالنازحة «حي الفراشات» حي العيار الثقيل «حي الأجاص». وكلها أحياء مهمشة تفتقر إلى أبسط مقومات أحياء المدينة. لم نخرج بعد من نظام القبيلة. أصبحت لدينا أحياء قبلية مشوهة لا هي محتفظة بنظامها القديم وتقاليده ولا هي استطاعت

أن تندمج وتخلق من نفسها أحياء بمواصفات المدينة. أنتج ذلك مدينة مشوهة. خليط غير موفق بين المدينة والبادية، لا تستغرب أن تجد في أرقى أحياء العاصمة «النصر» مثلا رجلا يرعى أغنامه هناك.

بل ستجد في بعض مداخل العاصمة أحياء للرُّحل. برفقة أغنامهم وإبلهم يسكنون خياما من شعر المعز. منظر يشعرك أنك فعلا في إحدى قصص ألف ليلة وليلة. تنتظر بكل شوق أن يتحول الجمل إلى مارد ليحقق أحلامك. لا بل أحلام أولئك المساكين الذين يسكنون هذه الخيام. هذا يحدث الآن. في القرن الواحد والعشرين.

بينما تتحدث كل يوم وسائل إعلامنا عن الكرامة والحرية والحق في السكن والصحة والشغل. هذا يحدث الآن. الآن لا نستغرب أيضا ما ينتجه هذا الخليط العجيب من تشوه اجتماعي يتجلى في صور شتى انتشار الجريمة وتوابعها...

أن تسكن كما فعلنا نحن. في حي شبه بلدي فإنك ستكون مضطرا لسماع:

- البلدية الصحاح كلهم خرجوا، الحي تعبى بالنزوح مالا عيشة.

تعرفت على فتحية. تحملت في العشرين يوما حماقتها وتعجرفها. لم تغفر لي أبدا أنني أدرس في الجامعة. تؤَكد لكل من تراه بأنها تُعلم ابنة الجامعة. كانت حريصة على تقديمي لكل من يزورهم بهذه الطريقة.

- بنت جيراننا مساكن زواولة. كراو استوديو حذانا نعلم فيها في الطريزة راهي تقرا في الجامعة.

تحملت كل هذا من أجل صالح. لا ليس من أجله. بل أصبح الاقتران به حُلم العائلة. أمي أكثر المتحمسين لمشروع كهذا. أختي الثانية كانت نسخة من أبي. القناعة كنز لا يفنى. أختي الصغيرة النسخة المتطورة مني.

- نحب نعيش. كرهت عيشة الميزيريا، عيشة الهم، عيشة الفقر.

اليوم الذي دخلت المنزل فيه بهدية صالح. جنت أختي الصغيرة من الفرح.

- «شنال» وواو أنا نحلم.

أمي استبشرت خيرا أيضا بهذه الهدية.

- ظاهر لي المرة هذه تعلمت شوية موش كيف إلّي ما يتسمى ما رينا من خليقتو كان الهم. ياخي غالية الدبوزة هذه؟

صاحت أختي الصغيرة.

- غالية. هذه يا أمي سومها شهرية بابا كاملة.

بعد أن انتظرت لقاءه شهرين كاملين. كان فيها في مهمة أو فترة تدريبية لا أدري. كل ما أعرفه أنني كنت أعد الأيام والساعات لألقاه. كل مرة أتصل على رقم هاتف شقته. لا أحد يُجيبني. أعرف أنه لم يعد بعد. عندما عاد وسمعت صوته طرت فرحا وقابلته.

كم خاب أملي بلقائه ذلك اليوم. بكيت لليلتين متتاليتين. كل ذلك الحماس. تلك اللهفة. لأراه لأسمع صوته. تبددت. جاءني إلى الكلية في سيارة صغيرة جميلة للغاية. استعرت فستانا من صديقتي وتعطرت بعطره. الطقس كان خريفيا ممزوجا بما تبقى من حرارة الصيف. انطلقنا من أمام الجامعة إلى حي راق هو حي «النصر».

لم يدعني إلى مقهى أو مكان آخر. تعامل معي كفتاة شارع. مباشرة إلى الشقة. انتابني ذعر شديد، لم أسمع كل ما يقول، جلست على أول أريكة اعترضتني. لم أتمكن حتى من إلقاء نظرة تفحص على المكان، كل شيء فيه ينم عن الرغبة والاستعجال كأنه في سباق لتحقيق رغبته. يقول أي شيء يخطر على باله. كل كلامه كان مركزا على جسدي. كم أنت جميلة، رائعة، اقترب مني.

ما إن لمسني صحت، فزعت، عادت الذكريات تنخر مخيلتي من جديد أنا التي ظننت أنني نسيت كل آلامي بهديته بلقائه. بدأت أبكي. لم يتوقع ردة فعلي البتة كأنني لدغته.

– شبيك شبيك لاباس؟

– آش تسخايبني؟ خرجت مني وأنا أشهق؟

عاد إلى الأريكة المقابلة. أشعل سيجارة وبدأ ينظر إليّ. تركني أبكي حتى عاد إلي هدوئي وطمئنني بأنه لن يعاودها. لم ينبس بكلمة. طلبت منه أن يُعيدني إلى الكلية وأوضحت له أنني لست من اللواتي يبعن أجسادهن وأنني أخطأت العنوان عندما اعتقدته شخصا آخر مختلف عما رأيته منه الآن.

لم يتكلم كثيرا، اعتذر بهدوء. دعاني لشرب فنجان قهوة في أقرب مقهى.

اعتذرت بلطف لأنني لم أعد في مزاج يسمح لي بذلك.

ظل صامتا طول الطريق، السيجارة لم تغادر شفتيه كان ينفخ بقوة لكنه قبل أن ينزل سألني:

– انجم نشوفك مرة أخرى؟

– كيف المرة هاذي ما نتصورش.

– ما قلنا سامحني عاد.

استسلمت، أعطيته جدول أوقاتي. كنت قد أعددته مسبقا وانصرفت.

خاب أمل أمي. أعتقد أن أمله هو أيضا قد خاب. كان يمنّي النفس بأحضان جديدة، بفرج جديد يصب فيه قاذوراته. سردت لأمي وأختي القصة كاملة بكل تفاصيلها الدقيقة.

بكينا فقرنا، عوزنا. بكينا حاجاتنا لمساعدة الآخرين الذين لا يرون فينا إلا ما يحتاجونه.

أنت فقيرة. إذن أنت سلعة قابلة للبيع والشراء، تختلف الطريقة فقط. قد تكون في حالات مثالية بأسماء مستعارة. فتاة صغيرة في عمر الزهور تُزف لعجوز سيسمي كل الناس هذا زواج لكنه في الحقيقة لا يعدو أن يكون عملية بيع وشراء لا أكثر ولا أقل.

وفي أحيان كثيرة يكون البيع والشراء في شكله الفاضح المقزز والقذر.

لا أنكر أن الفتاة الفقيرة تستطيع عكس ذلك. تستطيع أن تُقاوم، أن تصمد، أن تنجح. لكن في هذا الزمان وهذه الظروف يتطلب الأمر مجهودا كبيرا إرادة من حديد، ثقة عالية بالنفس، وهذا غير متوفر لدى غالبية الفتيات الفقيرات. بالعكس تكون نفسيتهن نظرا لما يعشنه من ظروف قاسية ونقص في أبسط الاحتياجات، تكون نفسية هشة قابلة للطحن بسهولة تامة. وهذا ما يحدث الآن، الآن، الآن، هنا وهناك حيث وُجِد الفقر والعوز.

كلما خرجت من باب الكلية التي كانت تغلي وقتها بالمشاحنات والاستقطابات السياسية لا تسمع إلا «خوانجي» أو «شيوعي كافر».

لم يكن عندي ميل لحضور أية حلقة من حلقات النقاش في الساحة أو أمام حجرة سقراط حيث يعتليها أحدهم ويبدأ بالصراخ، للحظة ستعتقد أنه يملك كل مفاتيح المشاكل التي نعيش فيها. ينتظر فقط أن يُزيح من أمامه هذا الخوانجي الذي يعطل مسار التنمية لينطلق قطار النمو والرفاهية والمساواة. كلا الطرفين يُغنيان الأغنية نفسها، وكلاهما ينتظر أن يزيح الآخر، لا بل أن ينفيه من الوجود. أن يصادر حقه في الحياة. الشيوعي كافر. يستحق الموت، يجوز فيه الجهاد. الله أكبر، الله أكبر. الخوانجي ظلامي. الدين أفيون الشعوب، يجب أن يُطبق فيهم العنف الثوري، لنقتلع الظلم والظلاميين من الأرض.

لم أكن أحضر هاته الهرطقة. ما بي من هم يكفيني ويغنيني عن ذلك. أحرص دائما أن أبقى لأكثر من عشر دقائق في المكان الذي قابلني فيه أول مرة. لم أستطع أن أكلمه في الهاتف.

إذا كان يريدني يجب أن يأتي هو دون أن أطلب منه ذلك. سيُشكل هذا فرقا كبيرا بل سيُعطي للعلاقة إن هو جاء مسارها الصحيح مسارها الذي أريده أنا وليس هو.

خمسة عشر يوما من الانتظار ولم يظهر بعد، يئست ورغم ذلك لم تقترب يدي إلى سماعة التلفون، أحيانا أضعف، أرغب، لكن في الأخير أتراجع. كدت أُجن، كان من الضروري أن أفعل شيئاً. قمت بزيارة منزلهم لعل الصدفة تلعب دورها وأجده. لم تكن هناك سوى فتحية وجدتها قد بَنَت جدارا إسمنتيا تُجاهي. مقابلة أجف من الجفاف. حتى خالتي محرزية وأنا أقبل رأسها أشاحت بوجهها عني في حركة لا يمكن أن يخطئ فهمها لَبِيب.

أليس من المفروض أن يتلهف هو لرؤيتي؟ لم أحرك فيه أي شيء إذن؟ أي مشاعر، أي أحاسيس. الرغبة والشهوة لا غير، هذا كل ما تحرك بداخله. ظن أنه يستطيع العبث بجسدي بقارورته. كأنني لا أملك إلا جسدي لأقدمه، أتلقى عشرات العروض في اليوم من أجل علاقة عاطفية. لكنني لست في حاجة إلى الحب. أنا في أمس الحاجة لشيء آخر. للاستقرار، إلى شيء يجعلني أحس بالأمان. نحن نعيش على شفا جرف هاوية أنا وعائلتي، مِثلي لم يُخلقن للحب.

نعم هكذا فكرت وهكذا قررت. دراستي أولا دروسي تحصيلي العلمي إن لم يحقق كل أمالي. سيكفيني مذلة السؤال على الأقل. أما صالح فإن لم يكن هو فواحد آخر من صنفه. سأجده، سيتطلب

الأمر بعض الوقت لكن في الأخير سأجده. صحيح أن صالح. يملك ما يجعل من قاعدتي وشعاري الجديد شعارا منسجما ومتناسقا.

«خذ ما يناسبك وليس ما يعجبك» فهو مناسب إلى حد كبير ويعجب أيضا شخصا لا يمكن إلا أن تُعجب به أي فتاة، بل ربما هو يستحق أكثر من ذلك لكن لا يوجد عندي ما أقدمه له أكثر من الإعجاب.

كان يوم السبت. خرجت من الكلية على الساعة الحادية عشر ونظرا لكراهيتي الشديدة لهذا اليوم ويوم الاثنين. عقدت العزم أن أسرع الخطى ما استطعت في الذهاب إلى المنزل. أنام وأنام وأنام حتى أشبع. هذه هي العادة عندي كل سبت، أدفع فيه الفاتورة المتأخرة للنوم بسبب الاستيقاظ باكرا والسهر للمراجعة.

أكره يوم السبت ليس لأنني أنام فيه، فهذا مدعاة للحب وليس الكراهية. أكرهه لأنه يشعرني بالدنيوية، لأنه لا يدور الحديث فيه مع زميلاتي إلا على برامج تكون بعيدة عني كل البعد. ليس بيني وبينها إلا الاحترام والتقدير، سنذهب إلى مطعم كذا، إلى سينما كذا، هناك مقهى رائعة في مكان كذا. والأكثر إيلاما سأشتري فستان كذا، من محل كذا، وعطر و.. وأنا لا أملك ما أقوله وما أعرفه في هذا الصدد.

يوم الاثنين يختلف الأمر، ففيه يكون استعراض الأماكن التي تمت زيارتها والمشتريات التي تم اقتناؤها والقبلات التي تمت سرقتها و... وتبدأ المقارنات بين الأماكن وبين المشتريات. فيه يتم عرض الذوق في اختيار الأماكن والأشياء.

– خرجة تفتق تقتل هزني إلى... شريت هذه وتلك الخ..

الفصل 9
القُبلة الدواء

«القبلة همسة أخطأت طريقها
إلى الأذن فاستقرت على الشفاه»

لم أصدق عيني. هو. نعم هو بلحمه وشحمه في المكان نفسه ينتظر، ينظر إليَ والابتسامة تعلو محياه. لم أكبح جماح نفسي. هرولت إليه، قَبّلته على وجنتيه طابعة فيهما أثر أحمر الشفاه دون شعور مني. هكذا أحسست وهكذا فعلت.

– هكة تعمل فيَ عشرين يوم ما تجيش؟ والله حرام. قلتها وعيوني مغرورقة بالدموع.

ارتبك، نعم ارتبك، وكأنه لم يتعود على مثل هذا الحوار المفعم بالأحاسيس.

– بالرسمي ألفة توحشتني؟

- أنا مش توحشتك بركة. ما نرقدش، ما ناكلش كي العباد، آش عملتلي؟

- علاش ما اتصلتش؟ كنت نستنى فيك تتصل، نستنى في تيلفونك.

- لا حبي ما انتصلتش. ترضى أنت لأختك هذا؟ بعد لي عملتو معايا وتحبني نتصل. بالله جاوبني، بالله من غير غش؟

- لا عندك الحق وقلتلك سامحني واليوم باش نخلص فاتورة أغلاطي.

أمسية جعلت من ذاك اليوم من أجمل أيام حياتي، يوم رائع. ذاك اليوم خرجت. أصبح عندي شيء أحكيه يوم الاثنين أنا الأخرى أمام زميلاتي، سأسرد منه القليل وأحتفظ بالباقي في ذاكرتي.

نعم، ذلك اليوم عرفت معنى المتعة الحقيقية، عرفت وجها آخر من أوجه الحياة الجميلة. كان غائبا، تائها عني. هذا الوجه الذي كنت أبحث عنه، هذا الوجه فقط الذي أجد فيه نفسي ذاتي. ينعكس في مرآته وجهي متلألأ.

هنا الفخامة بكل ما تحمل الكلمة من معنى، أناقة ورُقي في التعامل أنسياني فظاعة اللقاء الأول.

- اليوم باش نهدي لحبي هدية. أمانك ما تقولش لا، أنت تسكت بركة أوكي.

- أوكي.

في المركز التجاري الذي لم أكن أحلم حتى بمجرد الدخول إليه، كان عليَ أن أتصرف كسيدات المجتمع الراقي وأنا أتجول

داخل أروقته. الماركات العالمية تسلب الألباب. لم أكن أتجول فقط. أنظر وأتحسر كما في السابق. لا، هذه المرة وكل المرات التي ستأتي من بعد ذاك اليوم، كان عليَ أن أختار ما أشاء دون أن أفكر في المال. أول مرة في حياتي أشتري ما أُريد وأنا متحررة كُليا من التفكير في ثمنه. إحساس رائع لا يعرفه إلا من جرّب عكسه.

- اختاري آش تحب، نحب نشوفك أحسن وحدة.

- غاليين برشة صالح، برشة برشة، لا لا القطعة بهذيك الحسبة.

ضمني إليه ضمة خفيفة حنونة.

- من اليوم ماعادش تخمم في الفلوس، ناقصتك حاجة قول بركة.

ما هذا الحنان؟ كأنه يعرف ما أحب وما أريد وما ينقصني. لم ينتظر أن أتغلب على خجلي، نادى موظفة هناك. قامت هي بكل ما يلزم. كان مطلوبا مني فقط بتوصية من الموظفة اللطيفة أن أخرج له بين الفينة والأخرى لأريه كيف أبدو.

تناولنا وجبة الغذاء في مطعم على شاطئ المرسى. لم يسبق لي أن عشت هذه الدرجة من الانبهار. غداء احترت كيف أتعامل معه؟ كيف أتعامل مع الشوكة والسكين؟ بدوت لحظتئذ كبدوية في العاصمة. لكنني سرعان ما تغلبت على ترددي، على انبهاري، ظل صوت ينادي من داخلي قائلا هامسا مُشجعا:

- هذا عالمك ألفة، هنا مكانك، ستجدين في داخلك ما يُرشدك يجعلك تعرفين كل ما هو مطلوب منك. وتناولت طعامي بالشوكة والسكين كأنني متعودة على ذلك منذ عصور خلت، كأنني سبق وتناولت هناك أكثر من وجبة آلاف المرات.

بعد ذلك تمشينا على الشاطئ يدي في يده صامتين، لم نتكلم، لم نقل أي شيء، كنت أحس بنبضات قلبه تتسارع في راحة يديه في يدي. أحس به يستجدي ما يُطفئ ظمأه، شيء أحتاجه أنا أكثر مما يحتاجه هو. أوقفته واستسلمت له شفتاي. قبّلته، قبّلته بجنون. قبلة روت عطشي، أعادت التوازن إلى ذاتي. داوت جراحي كلّها هكذا فجأة. مرة واحدة، كأنها بلسم سحري. قبلة أنستني آلام جسدي، عذابه، أعادت له عذريته المنتهكة من جديد. كأنني أول مرة أعرف فيها معنى القبل. لأنني هذه المرة أعطيتها بإرادتي التي عكست رغبتي أنا أيضا وأنا في كامل وعيي. لم تُغتصب مني بفعل الخوف والكبت، لن أندم عليها مهما حصل. قبلة أعادت لي إحساسي بأنني أنثى. صالحتني مع جسدي، صالحتني مع ذاتي، لازال مطعم شفتيه من تلك القبلة في فمي، لازالت صورة بريق عينيه راسخة في ذهني، لازالت ارتعاشة جسده... أمسكت رأسه بين يدي.

- أتعرف صالح منذ أن رأيتك أول مرة قلت:

- هذا الرجل لي، ستكون لي أتفهم؟ أتؤمن بتعارف الأرواح أو الحب من أول نظرة؟

كانت علامة الفرحة والسرور تفيض من وجهه. لم يطلب شيئًا أخر. يضمني فقط بين الفينة والأخرى. كأنّ القبلة كانت كافية في ذلك اليوم الجميل.

يوم جميل بهدوء البحر الذي بدا يومها هادئًا كأنه يتمتع برؤية العاشقين. يستمع لهمساتهم وربما لكذبهم الجميل وهم يبنون قصورا من رمال شواطئه. والتي سيمحوها بأمواجه عندما يستيقظ غاضبا مزمجرا لتصبح كأنها لم تكن، لم تقل، ستظل همسات فقط.

جميل بطيور النورس التي كانت تحلق بحركات انسيابية وهي متخلصة من خوفها مقتربة أكثر من المعتاد من جلسات العاشقين لعلها تسمع بعض همساتهم، جميل بالشمس الخجولة في أفولها وهي تبعث بآخر أشعتها الصفراء على سطح البحر الهادئ ليمتزج اللون الأصفر مع زرقة الماء مع شعور الكثير من الفتيات المتناثرة والتي بدا لونها وهي تتطاير مزيجا فريدا من ألوان قوس قزح. لتعلن بذلك أشعة الشمس المنبعثة تلك، انتهاء يوم العشق لذلك اليوم. منظر العشاق وهم يقومون من أماكنهم حيث كانوا مختبئين بين الصخور ملتمسين العزلة للتعبد في محراب العشق وهم يُمسكون بقوة بأيادي حبيباتهم مخافة أن يهرب الحب من بين أيديهم، يتمسكون به تمسكهم بالأمل، أضفى كل هذا لمسة من الرومانسية. زادت لجمال اللحظة جمالا آخر.

تلك القبلة مطعمها لم يكن ككل القبلات التي جاءت من بعد ذلك. كانت فريدة من نوعها.

– لماذا لا تستمر الحياة هكذا؟

– لماذا لا نتخلص من كل أعبائنا وقيودنا الاجتماعية؟

– من نحن؟

– أبناء من نكون؟

– ماذا نملك؟

– لماذا لا نعيش كما نحس؟

كل تلك القيود تختفي في لحظات كهذه. تختفي حتى ليعتقد المرء في نشوة المتعة أنها غير موجودة. يستهين بها، يكفر بها يتحداها. لكنها دائما في مكان ما تنظر إلينا وهي تبتسم ابتسامة

تدل على جبروتها، على قوتها، على استهانتها باعتقاداتنا. تنظر إلينا وهي تترصد لتنقضّ في الأخير كأنها إعصار بركان. كأن المتعة لم تكن أبدا تُحولها بأزيرها بضرباتها التي لا ترحم إلى عذاب.

قد لا تنال من البعض أو قد تنال منا أحيانا وننجو في أحيان أخرى. لكنها مع ذلك تُفسد مذاق الأشياء. تُنقص من إحساسك بالمتعة، تجعل اللقاء بكل أنواعه الروحي والجسدي لقاءً روتينياً مملاً. تجعل من القبلات مجرد احتكاك جسدي لا طعم له. مختلف تماما عَما كان عليه في الأول. قبلة ذلك اليوم سرقتها أنا في غفلة من هذه الأعباء والقيود الاجتماعية كلها. سأحتفظ بها وبذلك اليوم في ذاكرتي كأجمل يوم عشته، كان الأجمل، كان الأروع.

اشتريت من بعد ذلك اليوم أغراضا أكثر جمالا وأناقة من التي اشتريتها وقتها. لكن لم يكن لها الوقع نفسه في قلبي كالتي اشتريتها ذلك اليوم. مارست الجنس بعد ذلك اليوم عدة مرات مع صالح كعشيقة وكزوجة. لم أصل أبدا إلى تلك النشوة التي أوصلتني لها مجرد قبلة دامت خمس دقائق.

الساعة السابعة مساء أمي في الشارع تنتظر. ما إن رأتني:

– وينك يا مكبوبة السعد؟ يلعن بوك الكلب فجعتني. وينك لتوا؟

عانقتها، قبلتها. أمي نحبك نحبك محلاكي.

– كنت معاه، كنت معاه أمي.

نسيت المسكينة قلقها وخوفها عليَ. تناست كل ذلك في لحظة فرحي سعادتي. أي قلوب رحيمة تملكها الأمهات؟ لو كان هناك عقار أو وصفة تجعل من كل الحب كحب الأم لما كانت هناك خيانة، لما كان هناك عذاب أبدا.

- خفنا عليك ألفة، فجعتنا الزح، كان عليك تقول.
- إي نسيت ما تصلتش بيكم في التليفون نتاع الفيلا. نقول للرجل استنى نمشي نكلم أمي وإخوتي ونرجعلك هذا كلام.
- إجو شوفو آش جبتلكم يزيو من الهبال.

حرصت أن اشتري أشياء يمكن أن أتشاركها مع إخوتي أختي الصغيرة جنت، كلهم ماركات عالمية. ماهذا؟

- بقداش هاذم ألفة بقداش؟

كل شيء في ذلك المساء كان جميلا. كيف تُضفي تلك الأشياء البسيطة على قلوبنا وهي تمنحها الإحساس بالسعادة، تجعلها تنظر لكل ما حولها نظرة أخرى يشوبها الحب، تتغير الرؤية، يتغير المذاق، الأكل كان أكثر من لذيذ رغم بساطته ورغم اعتيادي عليه. منظر منزلنا المقرف في عيني دائما بدا يومها جميلا في العينين نفسها، هناك شيء تغير في القلب.

النوم كان نزهة اختلطت فيها أحلام اليقظة بأحلام أخرى جميلة كانت شيئا أخر. رغم أننا لم نخلد إلى النوم إلا في وقت متأخر. أعيد لهن تفاصيل النزهة لحظة بلحظة. كأننا نريد من إعادتها أن يتوقف الزمن عليها. ألا نغادرها، أن ننقشها بكل قوة في الذاكرة. فرحن لفرحي كأنهن أيضا تمتعن، خرجن. يستوقفنني عند بعض التفاصيل للتأكد والتثبت. حتى قبلتي الجميلة أخبرتهن عنها. عن جمالها عن روعتها.

انسجامي مع عائلتي لم يفهمه صالح أبدا. بل لم يتقبله، كأنه يريدني أن أتنصل من جذوري كما فعل هو. لكنني لا أستطيع، لا يعرف ما يجمعنا. لا يعرف قيمة الألم الذي تشاركناه. لا يعرف أننا

كنا ننام أكثر من مرة دون وجبة عشاء. بل كانت وجبة عشائنا في الكثير من المرات. الدموع، الحزن، الفقر الذي يتحول في قمته إلى حب من نوع آخر.

تلك النظرات من عيني أبي وأمي. وهما ينظران إلينا، يريدان أن يذوبا، أن يموتا، يريدان أن يمسحا الحزن، الجوع، الألم عنا لكن ما باليد حيلة. لم ولن يفهمها صالح أبدا، يمنعني خجلي، كبريائي أن أقول له. تتحول تلك الدموع، تلك النظرات، إلى حب، إلى عناق ينسيك ألم الجوع للحظة فقط.

لكنه دوما تجد من يذكرك به. في لحظات مثل هذه يخرج الكثير من ذكور وإناث هذه العائلات إلى الشوارع وهم وحوش لا يرون أي شيء، لا يعرفون أي شيء، ينتقمون من أول من يجدونه أمامهم. لا يعرف أننا لا نملك إلا أن نحب بعضنا. لا أستطيع أن أخرجهم من عالمي. لأنهم هم عالمي الذي أعيش من أجله.

حلمنا ليلتها بفستان الفرح، بشقة حي «النصر» كأن صالح خطبني، بل كأنني عقدت قراني عليه.

الفصل 10
رهان امرأة

«الرجل يريد كل ما يستطيع أن يناله، والمرأة تريد كل ما لا تستطيع نيله»
مارك توين

لم يكن الأمر سهلا بتاتا هذه المرة أيضا كما في المرة السابقة، القلوب المتحجرة نفسها التي ترفض الآخر الذي لا يملك من متاع الدنيا الكثير. لكن الذي شكّل الفرق هذه المرة هو أنني كنت أعرف ذلك وكنت مصممة على ألّا يحول أحد بيني وبين ما أريد.

سأحارب بكل ما أوتيت من قوة. لن أنتظر ما سيُقدمه لي الآخرون. لا، سأخطو أنا خطواتي بنفسي وأتقدم لآخذ كل ما أريد.

تعددت لقاءاتنا بعد ذلك، أصبحت منتظمة. أصبح عندي مفتاح الشقة. حررتها من أصدقائه، أصبحت شيئًا يخصني أنا وهو فقط. لم تعد مرتعا ومكانا للمغامرات العاطفية ولجلسات الخمر. حررتها، أصبحت شيئا آخر بأثاثها الجديد. أذهب أحيانا هناك وحدي أو

برفقة أختي ننظفها، نطبخ وجبات كثيرة من الأكل لصالح تكفيه لأسبوع كامل. حتى دروسي عندما تقترب الامتحانات أراجعها هناك. مرة بلغ بي الجنون مداه، اصطحبت معي أمي إلى الشقة، كان صالح مسافرا قضينا ليلتنا كلها هناك.

صالح كان أكثر من كريم معي. ينفق بسخاء منقطع النظير، بمعرفته غدوت إنسانة أخرى. أضاف لي اشتراكي في مركز التجميل بحي النصر الراقي. بالإضافة إلى الملابس ذات الماركات العالمية والعطور الغالية الثمن إطلالة أخرى.

وُلدت من جديد، الكل استغرب هذا التحول المفاجئ، زميلاتي، أساتذتي. الكل والأكثر من ذلك صرت فتاة مرغوب في صحبتها ممّن كنّ إلى عهد قريب يتأففن حتى من مجرد السلام. لم يقتصر الأمر على ذلك، فإعجاب أحد أساتذة الكلية بي، بل تيممه أصبح حديثا وقصة تُروى في الكلية. أبدى استعداده لخطبتي للزواج بي. صالح لم يصدق الأمر في البداية. ظنه مجرد دعابة مني أو رغبة لإظهار كم أنا مطلوبة. لكنه عندما فوجئ بزميل له في العمل يتقدم لخطبتي في عرس أخته فتحية ظنا منه أني قريبته. أخذ الأمر على محمل الجد. اشترى لي خاتم خطوبة وألزمني أن أضعه في إصبعي وألا أتركه أبدا.

كما كان صالح أيضا فخورا بالتقدم أو التغير الظاهر على مظهري، بدا كمخرج سينمائي فخور بفيلم من إخراجه. زادت كل هذه الأشياء من جمالي. وزادت قيمتي عند الكل، أصبحتُ أكثر من مرغوبة، نظرات الإعجاب في عيون كل من نقابلهم أنا وصالح لا تخطئها العين.

الجسد الجميل عُملة مقبولة جدا ومرغوب فيها في زماننا هذا. صالح أصبح فخورا بامتلاكه لي، كأنه يملك تحفة، شيئاً من هذا القبيل. كان يشعر بالزهو كلما قدمني إلى أحد معارفه. في المقابل عرفت كيف أكون مفيدة في حياته، حتى مشاغل عمله التي يحرص أن تكون سرية لا يتكلم عنها أبدا. أحيانا عندما أسأله يرمي بكلمات هنا وهناك لا أفهم منها شيئا.

الجامعة كانت مليئة بالاستقطاب السياسي. حجرة سقراط لا ترتاح أبدا، ينزل هذا ويعلوها الأخر. كنت بحدسي أعرف أن هذا الأمر يهم بشكل أو بآخر صالح. عندما أنقل له ما يدور في الكلية وأبرز التطورات. يستمع إليّ باهتمام بالغ. وأحيانا يسألني مستفسرا عن تطور حدث معين أكون أنا بنفسي قد نسيته.

في هذا الصدد هناك حادثة شكلت لي صدمة كبيرة رسخت في ذاكرتي مثل صدمة إسكندر، صحيح أن هناك فرقا شاسعا بينهما لكنهما تصبان في خانة واحدة: الخيانة.

لم أكن مهتمة البتة بما يدور في الساحة السياسية ولم يكن يهمني ذلك بأي شكل من الأشكال، لم يكن مطروحا في ذهني أن أكون شيوعية، «خوانجية»، رأسمالية. كانت احتياجاتي احتياجات إنسانة. وإلى الآن هي كذلك.

في سويسرا حيث رافقت صالح في مهمة له هناك لا أعلم عنها أي شيء بطبيعة الحال. كل ما كان يهمني وقتها أن أزور بلداً أوربياً. أن أستمتع بمنظر الثلج الذي ارتبط في ذهني وفي قريتي بالفقر والعوز والخوف منه. كُنا أشد ما نخاف أن يكون العام مثلجا. كان يعني ذلك أشياء كثيرة مُفزعة. برد قارس، انقطاع المئونة، عزلة

تامة، إلخ... لكن في أوروبا يختلف الأمر، يصبح سقوط الثلج متعة. في سهرة نظمتها سفارتنا قدمني صالح لشخص يدعى «س الع» كملحق وسفير لبلدنا في سويسرا. لا أذكر بالظبط ماذا كانت مهمته هناك. للحظة بدأت أستعيد صورته هو لا. نعم. هو، تملكني الفضول، سيطر عليَ سألته:

– ألست أنت السيد «س»الع»؟

– نعم سيدتي أنا هو. هل تشرفت بمعرفتك من قبل؟

– لا. لا كنت أدرس معك في الجامعة نفسها.

شعر بإحراج كبير، احمرّ وجهه، فَهِم ما أعنيه، لم يمكث معنا كثيرا، اعتذر وغاب بين الجموع.

في الفندق جن جنوني، قلت لصالح إنه هو خطيب حجرة سقراط.

– ما المشكلة في ذلك؟

– هناك مشكلة كبيرة. أتعرف ماذا كان يقول؟

– لا شيء، كلام فارغ.

– لا كان يقول وسمعته بأم أذني إننا لا يجب أن ننتظر ما هو إيجابي من حكم الجنرال لا، لا شيء. لأنه لا يوجد في عقله إلا حذاء العسكر واصفا إياه بالجاهل. أمام الملأ في وقت كان ذكر الجنرال بالسوء في مجموعة صغيرة يقود إلى غياهب السجون فما بالك أمام الملأ دون خوف أو جزع.

– عادي، لن تفهمي اللعبة ألفة ارقدي.

لا، لن أنام اليوم بالذات، أريد أن أعرف، كنت أظنه بل أحسده لشجاعته لكونه استطاع أن يقول ما لم يستطع الآخرون قوله. كان

بطلا حقيقيا في عيون الكثير، كان فارسا مناضلا في عيون الكثير من الطلاب وقتها. حجرة سقراط كانت تعرفه، تسمعه، لم يكن يمر أسبوع دون أن أسمع صوته وهو يزمجر ويهدد ويبشر بالثورة التي ستجلب لنا الرخاء والمساواة. كنت أعتقده الآن في السجن. لكنه الساعة يشرب الشمبانيا ويأكل الكافيار في سويسرا على موائد بن علي الجنرال.

– أكان يكذب علينا؟

– ما هي الحلقة المفقودة؟

ألا تعتبر هذه خيانة لكل من سمع كلامه وآمن به وتصرف على ضوء هذا الكلام؟ أ لم يدفع هذا الشخص وأمثاله بمئات الشباب إلى السجن، إلى البطالة وهو لا يعدو أن يكون عميلا بل جاسوسا عليهم؟ يتدثر في جبة الثوريين والثوار ليزج بالثوار الحقيقيين في السجون؟

– اسمعي ألفة سألخص لك الأمر في كلمتين. الخوانجية واليساريين. في العالم العربي ككل هما وجهان لعملة واحدة، الاثنان هما حطب السياسة العربية بدونهما لا يمكن أن تشتعل وتستمر.

قيادة الطرفين تجار دين، جل «الخوانجية» يتاجرون في الدين عبر الدعوة إلى تبني سياسة دينية دعوية إيمانية. وجل اليساريون يتاجرون بالدين عبر الدعوة إلى الإلحاد به والشك فيه واعتباره معطل مسيرة التنمية.

جل الحكومات تعقد تحت الطاولة صفقات مع قيادات الطرفين وفي المقابل تعتقل وتعذب القواعد. هؤلاء فقط إيمانهم حقيقي بما

يعتقدون. وهنا تكمن خطورتهم. أغلبهم إيمانهم فطري لم يُكتسب عن طريق علم ومعرفة. تجد أغلبهم لا يقرأ، لا يطالع، بل لا يمكن أن يُعطيك أبسط تفسير لما يحمله ويؤمن به من إيديولوجية. هذا ما يجعل أمر تجنيدهم أمراً سهلا للغاية.

هم من يدفع الفاتورة. الأنظمة كانت بغريزة حب البقاء. أكثر ذكاء باحتوائها الجميع بل بخلقها لهذين القطبين حيث أصبح جل العمل السياسي أو الانتماء السياسي داخله يسهل مراقبته وتوجيهه، كل شيء موجود في السوق السياسي، ميولاتك الفطرية إسلامية؟ تفضل لدينا كل ما تحتاج إليه ويناسبك:

* إسلام سياسي خفيف معتدل
*إسلام سياسي معتدل
*إسلام سياسي متطرف

وهناك إسلام سياسي مثلا معتدل متطرف. معتدل خفيف إلى غير ذلك.. كالبنزين، وكذلك لدينا:

*يساري اشتراكي خفيف
*يسار اشتراكي معتدل
*يسار شيوعي متطرف

دون أن ننسى أيضا متطرف خفيف، متطرف معتدل. إلى غير ذلك.. الأهم ألا تذهب إلى سوق أخرى تجعلك تؤمن بالإنسانية. بأن الفقر لا يفرق بين هذا وذاك. عندما تكون شوارعنا متسخة فإنها ممر للجميع. منظومتنا التعليمية والصحية مشلولتان. هي مقصد كل أفراد المجتمع بغض النظر عن انتماءاتهم. عندما يكون هذا هو شغلنا الشاغل فقط وليس اختلافاتنا الفكرية التافهة. هذا ما يجعلنا

نرقى بمجتمعنا. أن تكون ما أنت تريد أن تكونه. وأنت فرد صالح تعرف ما لك وما عليك. هذا يكفي، بعدها كن ما شئت. فكر كما شئت، أنت الآن تمتلك الحرية الحقيقية.

هناك سؤال محيّر. لماذا كل التيارات السياسية والحزبية متشرذمة ومتفرقة وهي تحمل الفكر نفسه؟ ألم يكن حريا لو لم تكن هناك أسباب أخرى بكل التيارات الإسلامية واليسارية أن تتحد فيما بينها باعتبار أن ما يجمعهم أكثر مما يفرقهم؟ وكذلك التيارات الأخرى؟ لماذا إذا هذا التشرذم؟ بل هذا العداء أحيانا بين أبناء التيار الواحد؟ أليس على التموقع وعلى المكاسب؟ ألا تجمع كل الإسلاميين كلمة أخي في الله؟ ألا تجمع كل اليساريين كلمة رفيقي؟

انأ وأخي في الله نتحد فقط عندما يتعلق الأمر بخصومة، بعداء، بحرب مع رفيقي. وأنا ورفيقي نتحد فقط عندما يتعلق الأمر بخصومة وعداء مع أخي. هكذا لا نتحد أبدا عندما يتعلق الأمر بخصومة مع الجهل، مع الفقر، مع الأوساخ، مع العفن... لماذا لماذذذذذذذا؟

لأن هناك من يشجع هذا التشرذم، ينفخون في النار التي تغذّي ذلك. ويبقى النظام بعيدا بعيدا آمنا يراقب. سيظل كل من يجد في نفسه رغبة في ممارسة السياسة في هذه

الدائرة، وهذا ما تريده وتبحث عنه كل الأنظمة. كالمظاهرات مثلا، أجمل شيء وأحسن شيء يبحث عنه النظام.

يستطيعون أن يُلبسوا أي مظاهرة أي جبة يريدون، حضارية، إرهابية متطرفة، لا يتطلب الأمر غير زرع ثلة مما يريد من أي طرف.

وهؤلاء لازالوا يعتقدون أن المظاهرات وسيلة تعبيرية واحتجاجية ناجعة. في حين أصبحت المقاطعة عند شعوب كثيرة من أنجع الوسائل التعبيرية والاحتجاجية.

- لكن بعض قيادتهم بالفعل يدخلون السجن

- ذلك شئ ضروري، ربما اعتقد أحدهم في لحظة نشوة أنه زعيم حقيقي فيتم تأديبه لخروجه على النسق المتفق عليه وهذا أيضا ضروري في حالات معينة. هي إضفاء شرعية نضالية على المسجون، أما إذا تأملت تاريخ أي قائد للأحزاب التي تدخل في هذه الدائرة. لن تجدي أنه قضى أكثر من عام أو عامين في السجن على أبعد تقدير. دائما يخرجون بصفقة تحت الطاولة.

يكون الحكم الصادر من المحكمة مختلفاا تمام الاختلاف عن المدة المقضاة. في حين تجدين قواعدهم من الذين صدرت في حقهم أحكام بالسجن لأعمال طلبت منهم وقاموا بها قد قضّوا داخل السجون أكثر مما يستحقون. هناك استثناءات قليلة جدا وهذه الاستثناءات تعني بطبيعة الحال أنه هناك معارضين حقيقيين وشرفاء، لا يمكن أن ننكر ذلك، لكن يظلون مع ذلك قِلة قليلة قد طالتهم حملات التشويه والتنقيص من قيمتهم. حتى تبدو إطلالتهم محدودة على الجماهير وكذلك تأثيرهم.

في حين يتم النفخ في إشعاع المعارضين المصنوعين من قبل آلة النظام نفسه. الذي يتنقل كالنحلة، تارة يمص رحيق هذا وتارة يلسع هذا. وتارة يعطي العسل لهذا. والكل يتحمل اللسعات من أجل موعد جني العسل. وصاحبنا الذي رأيته اليوم في فترة جني العسل ليس إلّا.

- ألفة نامي هذا آخر ما عندي.

تخرجت ومع تخرجي نفذ صبر أمي وكثر طنينها.

- ياخي وقتاش؟

لا يمكن أن أنكر أن صالح ساعدنا في هذه الفترة. غدوت مسؤولة منه بشكل كامل. مع ذلك شكلت نظرته الدنيوية لعائلتي بثرة ظلت تكبر يوما بعد يوم، عاما بعد عام، تكبر بدمها وقيحها. حتى عندما تقدم إلى أبي وبإصرار مني. ليُعطي ما يسمى «بالكلمة». إذ لا مبرّر للخاتم الذي يحرص على أن أضعه في إصبعي دون خطوبة وكلمة موافقة رمزية من أبي.

جاء وحيدا ومُتخفيا، لم يُعامل أبي كشاب يطلب يد ابنته، كان العكس. هو من كان يَمُنّ بتصرفاته المتعجرفة على أبي وأسرتي قبوله الارتباط بابنته وإن تم الأمر. حتى عندما أراد أبي المسكين أن يمازحه قائلا:

- سي صالح أحنا محسوب زملاء، أنا خرجت كابران شاف من العسكر.

بدت نظرت الاستعلاء المصحوبة بالتقزز واضحة على وجهه، لم يحرص على إخفائها حتى من باب المجاملة.

- زملاء مرة وحدة، يمكن.

لم تستمر زيارته إلى منزلنا الجديد الذي استأجرناه خصيصا لهذه المناسبة. غيرنا أثاث غرفة الجلوس كاملة حيث ظل أبي يدفع أقساطها لعام كامل. أنفق أبي المسكين كل مدخراته، بل اقترض من الشركة التي يعمل فيها. لكي يجلس السيد صالح نصف ساعة

متكبرا متعجرفا غير راض تماما كأنه أنعم علينا بزيارته. كأنه مشدود بواجب ثقيل يؤديه رغما عنه، لم يقل أي شيء مما يجب أن يُقال.

- لم يقل عمي جيتك خاطب راغب في بنت الحسب والزفت، ولا شيء من هذا القبيل. كلمات تافهة كهذه تنتظرها أية فتاة في موقف كهذا. تكون أجمل ما يمكن أن يُسمع وخصوصا عندما يرافق انتهاء قولها تلك الزغاريد الجميلة والمعبرة. والتي حَرمنا منها السيد صالح، أعطى أوامره السامية قبل مجيئه وجعلها شرطا أساسياً لحضوره. ألّا تخرج أية زغاريد. سرق فرحتي، قَزّمني أمام عائلتي، جعلني أبدو رخيصة أمامهم، جارية يملكها ويمنّ عليها سيدُها.

تكفلت أمي باستفزازه قائلة.

- إن شاء الله ربي يهنّيكم. أي وقتاش إن شاء الله نفرحوا بيكم؟

خرجت الكلمات من فِيهْ غير مفهومة غير واضحة لا تُعبر عن شيء، ولا تتماشى مع ما نحن فيه.

- إن شاء الله إن شاء الله ربي يسهل اللي فيه الخير.

- هيا جماعة سامحوني عندي ما نعمل تصبحوا على خير.

ظلت الطاولة كما هي. كعكة المرطبات التي جلبها كما هي مع باقة زهوره. كأس شاي بالبندق ربما رشف منه رشفة واحدة لا غير. الصحون الأخرى الممتلئة بكل أنواع الحلويات الفخمة التي ورّطتُ أبي المسكين ليشتريها كأنها لم تكن موجودة. العشاء الذي أعددته أمي وأنفقت عليه كما قالت دم قلبها لم ينتظره.

خاب ظن عائلتي. أبي المسكين خرج مباشرة.

- نمشي نعمل شيشة قبل ما راسي يتفرقع.

– أمي: يا بنيتي هذا عاملة منو رأسمال هذا متاع عرس، يا ذنوبي، هذا الحنين الي تحطو عل الجرح يبرا، هذا لي شاريك، يا بنيتي الراجل ما خزرلناش جملة تقول قاعد على الشوك.

– ماما ماما أمانك، دخلت إلى غرفتي واستسلمت للبكاء.

شكلت أسرة صالح عائقا كبيرا أمام زواجنا، كدت أجن كلما فكرت في الأمر، قالها صراحة.

– إحنا مع بعضنا لن أُغضب أمي إما أن ترضى هيَ أو لا زواج.

هي لن ترضى أبدا، حتى بعد زواج فتحية. قمت فيه بأكثر من الواجب، معتبرة الحاجز الأسمنتي غير موجود رغم علوه. لعلي أذيب بعض الجمود، عَلِّي أكسب القليل من اللين فقط لكن دون جدوى. فتحية تنتظر الآن مولودها الثاني وأنا لازلت كما أنا، لا أعدو أن أكون عشيقته لا أكثر.

يئست، كِدت أجن، كما انضم أبي إلى طنين أمي طالبا مني أن أبحث عن عمل.

– بري بنيتي لوجي على خدمة وشوفي مستقبلك خير ليك.

صالح لا يريدني أن أشتغل بل يهدد بقطع العلاقة إن حصل ذلك.

كانت أصعب مرحلة في علاقتي بصالح. أصبح يشوبها الفتور، أحسست أنني أصبحت حِملا عليه. لا يمر لقاء دون نقاش، دون توتر، أعاد لي ذكريات الجرح القديم، كرهت الذكور كرهت... كرهت... أحس أحيانا أن صالح حريص على الارتباط بي من باب الواجب ليس إلا، نوعًا من الشهامة.

هذه هي كانت حساباتنا، وللقدر حساباته أو ما نسميه في تونس «المكتوب»، ماتت أم صالح ومات معها يأسي، ماتت ليُولد بموتها حُلمي.

استقبلت أمي نعيها بالزغاريد التي لم تستطع أن تُخرجها يوم خطوبة النحس تلك. لا يمكن أن أنكر فرحي بموتها. كيف للإنسان أن يفرح بموت إنسان آخر؟ بهذا الشكل كيف له أن يكتسب هذه القسوة؟ إنه عمل مشين، ورغم إدراكي لذلك لم يؤنبني ضميري وأنا أكتب هذه السطور، لم يؤنبني ضميري البتة. فرحت يومها كما لم أفرح من قبل.

شاركت العائلة حزنها. هذه المرة كأنني فرد منها. فتحية بموت أمها أبدت الكثير من اللين، استسلمت. رفعت المنديل الأبيض كأن شيئاً لم يكن بيننا. غاب الجفاء، اختفى الجدار الإسمنتي كأنه لم يكن، لعب القدر لعبته. أهداني هدية لم أتوقعها، للحظة كنت أعتقد أنها ستعيش لمائة عام أخرى، ستعيش لأتعذب. ستعيش لتتلذذ بعنوستي. لم تنقض عليَ نوائب الدهر هذه المرة. ذابت بموتها الكثير من القيود.

كانت فتحية تعرف أن قرار أمها هو المؤثر في صالح، وأنه وحده من كان يحول دون الارتباط بي. والآن لا تملك إلا أن تستسلم إن هي أرادت ألّا تفقد ودّ أخيها ودعمه. لكنني أقسمت في داخلي بأنني سأجعلها تفقده آجلا أم عاجلا.

تزوجت كما أردت وكما تصورت وكما حلمت بل كما حلمنا كُلنا أنا وعائلتي. بعد مرور عام على وفاة أم صالح. في فندق خمسة نجوم حرصت أمي على أن تُوجه الدعوة إلى مجموعة كبيرة من

أفراد عائلتي في القرية، أرادت أن تصفي حسابا قديما.أرادت أن تغسل شرف ابنتها، أرادت أن تبعث برسالة مجد ابنتها إلى كل من تكلم في شرفها، إلى كل من قال إننا هربنا ليلا بعارنا.

أيدتها في كل خطواتها وكان لها ما أرادت. شملت الدعوة بعض أقارب إسكندر الذين بدوا غير مصدقين لما رأوا كأنهم في حلم، أفواههم مفتوحة، عيونهم جاحظة. كم أشفى ذلك غليلي، كم أحسست بانتصاري. وأنا أسلّم عليهم من فوق عرشي. وأنا أخرج من سيارة الليموزين فوق السجاد الأحمر. بفستاني المتلألأ والمرصّع بالجواهر، بتاجي الملكي، ملكة أنا خرجت متأبطة ذراع أبيها. حرصت على ذلك أشد الحرص لأرُد له اعتباره أمامهم، لأقول لهم لم تنالوا منه، لم تطردونا من الجنة بل إليها. أبي الذي بكى من الفرحة وهو غير مصدق ما يرى.

أنا التي تكبّرتم عليَ، أنا التي ظننتم أنكم سلبتم شرفها. أنا الآن أُشرّف قبيلتكم كلها. تذكرت بيت عنترة أحسست إحساسه قلت له أنني أفهمك.

لقد شفى نفسي وأبرأ سقمها * قيل الفوارس ويح عنتر أقبل

كان العرس عبارة عن مسرحية أو فيلم نحن ضيوف فيه، لم يكن هناك أدنى تنسيق أو قبول وانسجام. عائلتي لا تعرف من عائلة صالح أحد. بل لم يسبق أن تقابلوا حتى. صالح نفسه أشاح بوجهه عن عائلتي بكل ما أوتي من قوة. أما أصدقاؤه ومعارفه كانوا يرفلون في ملابسهم الفاخرة ويتكلمون وهم حريصون أشد الحرص أن تكون كلماتهم محشوة بأكبر عدد ممكن من الكلمات الفرنسية مصحوبة

بنظرات الاحتقار والازدراء يوزعونها على كل الحاضرين من عائلتي التي استأثرت بالفرح، تصرفوا على سجيتهم، لم يستوعبوا أن يروا مطربين ومغنيين كانوا لوقت قريب يسمعون أغانيهم في الإذاعة والتلفاز.

أمّا أن يروهم هكذا مباشرة فالأمر أكبر من أن يتحملوه. تُشاهد كل لحظة أحدهم يقتحم ركح المغني يقبّله، يرفع يديه. يريد من الآخرين أن يشاهدوه. أن يشهدوا أنه مع المغني. بالإضافة إلى الكم الهائل من الخمر بأنواعه المختلفة والفاخرة والمتاحة للجميع دون حسيب ورقيب، الأكل الكثير المتنوع المتاح أمامهم أيضا هكذا بلا حسيب أو رقيب. كُلْ كما تشاء واشرب كما تشاء.

شبعت البطون ولعبت الخمر دورها. غَنّوا، رقصوا بل نظموا أهازيج مدح فيّ وفي أسرتي. أنزلوني من كرسي عرشي ليطوفوا بي قاعة الحفل في الفندق، وهم ينشدون:

يا بنت الاجواد مصدرة ف التعليلة **** خمسة وخميس يا مبركها هذه الليلة

بيضة حمراء أم الشعور الذهبية**** قولو لبوها يرشق عليها بالمية

دوخ دوخ دوخ.....

استسلمت لهم والفرحة تغمرني لِتُداوي كلّ جروحي، هروبي وعائلتي ليلا والكل يهمس بعاري. الساعة الكل يُغني مجدي وأنا مرفوعة فوق رؤوسهم كلهِم، نعم، أنا بنت الأجاويد الآن.

لم يعجب ذلك أحداً، لا ترى إلا نظرات التأفف والازدراء من الحاضرين مدعوي صالح الذي لم يستطع هو الآخر أن يُخفي علامات التأفف والامتعاض الظاهرة على مُحياه. تجاهلت كل ذلك وأنا أستمتع بليلتي، نعم كانت ليلتي أنا وحدي فقط أنا وعائلتي. كنا نحن فقط نعرف ماذا يعني ذلك. في حين حضرت عائلة صالح كنوع من أداء واجب ثقيل لا يرغبون فيه. انسحبوا دون ضجة في منتصف السهرة.

المهم بالنسبة إليّ وقتها أنني تزوجت بصالح. قالت لي أمي ن حفلة زواجي ظلت لأشهر كثيرة حديث القرية. بكل شوارعها الضيقة ومقاهيها. نفسها التي تكلّم روّادها في السابق عن العار الذي فررت به أنا وعائلتي، يتكلمون اليوم عن مجدنا أنا وعائلتي.

– عرست بواحد لاباس عليه مش نرمال.

– العرس آش باش نقولكم في وطيل يا دين الزح

– لا لا إسكندر يا ذنوبي، كان يكذب على الطفلة، كلنا ظلمناها.

الذين حضروا العرس أصبحوا مميزين في القرية كأنهم حظوا بشرف لا يناله كل الناس.

حياتي فيها كل مقومات السعادة. سعيدة أنا بزواجي رغم كل شيء، محظوظة أنا بزوجي لم يتغير. ظل كما هو، كل شيء يكبر فيه، اهتمامه بي يكبر لا يحرمني من كل ما أريد. شقتي في حي النصر أثثتُها كما حلمت، لم يتدخل أو يتأفف. لكن عندما يتعلق الأمر بعائلتي ينقلب.

موقفه السلبي منهم أيضا يكبر يوما بعد يوم عندما يزورونا ويحدث أن يكون موجودا، تجده يختلق ألف عذر ليخرج، لينسحب، لا يعود حتى يتأكد أنهم انصرفوا.

انتظارات عائلتي أيضا من هذه الزيجة لم تتحقق كما يريدون، وكما كانوا ينتظرون، أمي تُصر على أن أتوظف.

- يغار عليك وما يحبكش تخدم. يخدمك معاه في الوزارة وين يخدم، قريت باش تشدي الدار، وين باش نخدم بابا ونهز معاك الحمل؟ بايك باش يقتلوا الحمل وأنت راقدة مرتاحة. لي وجهو وجه الهم يقعد غاطس فيه واحنا الهم بنيتي ستانس بينا وستانسنا بيه ما يفكو علينا كان الموت.

لم أُقصر أبدا، دائما أعطي ما أستطيع أن أُعطيه خِلسة من صالح الذي يتظاهر فقط أنه لا يعلم. لم يوقف كل عطائي ذاك طنين أمي. أصرت أن يتوسط صالح في توظيف خطيب أختي في سلك الشرطة. ألمحت إلى ذلك مجرد تلميح لأصطدم بحاجز فولاذي من صالح لا مبرر له.

- الريق هذا حتى بالتفدليك مانحبوش، لا حبي لاهم يحزنون، هذا اللي ناقص، ندور بملف خطيب أخت مرتي قدام صحابي شنو الراجل بطال مالا حالة.

عودت عائلتي أن يقبلوا مني ما أعطيهم. رغم عدم رضاهم وعودت نفسي أن أسمع همزات أمي وأختي الصغيرة دون أن أُعلق عليها وأن أتجاوزها. في حين كان حضور فتحية وأولادها وزوجها في حياتنا بارزا، دائما موجودة في أتفه مناسبة وبدون مناسبة.

- ألو فتحية توحشت تطيبك تجي بحذانا نهار الأحد نحب على كسكسي من يديك أنت.

كان ذلك يؤلمني، فصالح يحرص أن يستدعي أخته أمامي وأنا أسمع، وكنت أفهم معنى ذلك، ألّا يأتي أحد من عائلتي ذلك اليوم.

حفظت دروسي بصمت، حفظت إعراضه عن أكلي بصمت أيضا. وإن تعذّر على السيدة فتحية الحضور فكنا نحن من يزورها. كان هذا يريحني بعض الشيء نظرا لقرب المسافة بين منزلهم ومنزل عائلتي حيث أقضي أغلب الوقت هناك.

الطاهر كان بعيدا جدا لا يزورنا إلا في المناسبات الرئيسية. عيد الأضحى، رمضان، لم أستطع أن أُحدد طبيعة العلاقة بين صالح وأخوه. الطاهر لا يطلب أي شيء على عكس فتحية.

في حين كان صالح يرتاح أكثر مع فتحية وأولادها، قدم لهم أشياء كثيرة. حرص أن يلج أولادها مدرسة خاصة على نفقته. كما مَكّن زوجها من رخصة تاكسي. في حين كان دائم الإعراض عن أخيه الطاهر دون مبرر واضح. لم يكن يهمني ذلك كثيرا، وأخ صالح لم يكن من النوع الذي أرتاح لمجالستهم. فتحية لم تتخل عن عنجهيتها، تعتبر ما تأخذه من أخيها حقا. وهل من مزيد؟ بينما يكون هو سعيد بهذا العطاء، بل يكلفني أنا دوما بالقيام به لانشغالاته وسفره الدائم حتى اعتادت فتحية على ذلك.

رغما عني اعتبرت هذا أمرا طبيعيا جدا. كنت سعيدة في حياتي في زواجي أكثر مما كنت أتوقع أو أحلم. تُوجت هذه السعادة بأعظم إحساس يمكن أن تحسه أو تعيشه امرأة عندما تتكون حياة

أخرى داخل أحشائها. ذلك الترقب الحذر الجميل. المصاحب بمجموعة من الأحاسيس. الممزوجة بالخوف والترقب.

– ماذا نريد من القدير أن يهب لنا ذكر أم أنثى؟

الكل يدلو برأيه في حب ظاهر دون تعصب. مصاحب بدعوات أن يصل المولود أيا كان جنسه في صحة جيدة. أن يكون فأل خير على والديه. تلك الزيارات التي يحرص الكل فيها على مرافقتك إلى الطبيب. صالح رافقني مرة عندما تقرر تحديد هوية الجنس. ذكرا كان. أمطرني قبلا، قَبّل بطني، كل موضع في جسمي، أعادني إلى عرشي.

ملكة أنا أيضا بأمومتي. جاء اليوم الموعود يوم المخاض، ذلك الخوف، تلك اللُّحمة تمدك بالقوة بكل ما هو إيجابي. في المصحة ومحمد علي بين ذراعي، في حضني أُرضعه من ثديي. أية متعة؟ أي إحساس؟ لا يوصف، لا يوصف. أن تخرج الحياة من أحشائك رغم كل ذلك الألم الحاد الذي يتلاشى فجأة كأنه لم يكن عندما تسمع ذلك الصراخ القوي الذي ينبعث من تحتك مُدويا قائلا: أنا أتيت، أنا قادم. تأخذه بخوف كأنك تحمل تحفة ثمينة. لا. أكثر من ثمينة، ذلك الحذر، تلك النظرة الأولى. تتلمسه في خوف، ذلك الاحتكاك الأول عندما تلامس شفتاه الصغيرتين حلمتي ثديك، تلك القشعريرة الأولى الغريبة الفريدة التي تلامس كامل جسدك كأنها صعقة كهربائية خفيفة لذيذة، لا يمكن لأحد أن يحدد كنهها إلا الأم. الأم فقط تستطيع أن تُحدد ذلك.

الكل ملتف حولك، تغيب كل الخلافات، تتلاشى لا يبقى إلا الحب. الطاهر وزوجته وبناته حرصوا على زيارتي في المصحة.

طلب مني أن أعطيه محمد علي، دموع الفرح في عينيه، كأنني أعرفه اليوم، لم أتعرف عليه من قبل. لم أكتشف تلك الطيبة، ذلك الأذان الذي أطلقه في أذن محمد علي. ذلك الدعاء الصادر من القلب. يرجعه ويضع تحت رأسه مبلغا من المال.

أمي احتكرت كل المبالغ المالية والهدايا، شكلت مخدة محمد علي بنكا لها. أحبته أكثر من الجميع. ما إن يخرج المُهنون حتى تنفرد بمخدة محمد علي في منظر يثير الضحك وهي تعد الأوراق وتخبئها في صدرها.

لم يهتم صالح بالهدايا قط، كان ابنه أكبر هدية بالنسبة إليه. ذلك العشاء الذي اجتمعت فيه عائلتي وعائلة صالح على مائدة واحدة لأول مرة. تأتي هذه الحياة المزروعة في الأحشاء سحابة مطر جميلة لأرض عطشى، الكل ينسى، الكل يسامح... ليقف لحظة ليتمتع ليلقى نظرة، ليُلقى أمنية عما تحمله هذه الأحشاء من حياة.

صالح غدا أكثر حنانا بمجرد سماعه الخبر، أمي نست أو تناست كل طلباتها. فتحية لم تعد تغادر بيتنا، تحرص على أن تلبي كل طلباتي. للحظة اعتقدت كما اعتقدت يوم القبلة أن كل الفوارق ذابت. هي وأمي أصبحتا صديقتين يتعاركان. إن كان المولود سيكون شبيها لي أو لصالح، وكل واحدة تُعدد مناقب وجمال من تحب. في جو حميمي رائع، كنت ملكة بحملي الأول. نعم ملكة متوجة بتاج الأمومة. رزقت بمحمد وبعد بابنتي ياسمين. مقدمهما كان مقدم السعد في حياتي. زوجي يترقى من منصب لآخر في خضم نجاحه وفرحته بابنه وابنته، يتغافل، يتغاضى أكثر عما أقدمه

لأهلي. تكفلت بعرس أختي الثانية ووفرت لهم مسكنا آخر أدفع أجرته كل شهر. ومع ذلك هل من مزيد؟

- لا حجينا ولا ملكنا كيف العباد لكن الله كريم توا ينوب.

أختي الثانية لم تُكمل دراستها، عملت بإحدى الشركات، تعرفت هناك على خطيبه الذي حرصت أمي بكل قوة أن تصنع منه شرطيا. في حين ظلت أختي وفية لقناعتها. تزوجت بما تملكه من إمكانيات دون أن تُرهق أحدا، لم تُكلفني أكثر ما أستطيع. تقبلت كل ما استطعت أن أقدمها لها بصدر رحب وابتسامة تنم على الشكر والتقدير. ليس كأمي، كلما قدمت لها شيئا أو اشتريت لها غرضا تزم شفتيها يمينا ويسارا ولا تتوانى أحيانا عن التعليق الذي يكون مقزما دائما لكل ما أُعطي.

المشكلة كل المشكلة في أختي الصغيرة سلوى تقتفي أثري، سقف أحلامها أكبر بكثير من إمكانياتها، ظلت هكذا، لا دراسة اكتملت ولا عريس بمواصفاتها وجدت. في عُرف أمي أنا من يتحمل مسؤوليتها، والأغرب طنينها المستمر وهي تُحمّلني وزر ما آلت إليها أحوال ابنتها.

الفصل 11

عدوى الخيانة

الكثير من الناس يضيعون نصيبهم من السعادة ليس لأنهم لم يجدوها ولكن لأنهم لم يتوقفوا للاستمتاع بها !!!

ويليام فينر

سنوات مرت بعد ذلك، لم يتغير شيء ذو بال، النسق نفسه يرتفع أحيانا ويخبو أحيانا ويكبر الأولاد. سنوات تَمُر وتكبر معها البثرة في علاقتي مع صالح، ظلّت تكبُر بِدمها وقيئها وانفجرت أخيرا لتُظهر أكثر مما كانت تُخفي. انفجرت لتطرح قذارتها أمام أعيننا. نصطدم بها نراها تجري مُشَكِّلة بذلك نهرا من الخيانة، يكبر ويتسع إلى أن امتد سيلانه لي. أنا التي لم أفكر يوما بذلك. أنا التي ظلت الخيانة بالنسبة إليّ جريمة مُشينة. إحساس مُقرف للغاية، أنا بين عشية وضحاها، أصبحت خائنة هكذا دون مقدمات.

ظلت الخيانة التي أكرهها تكبر يوما بعد يوم في داخلي، يُغذيها الحرمان، الرغبة في الانتقام، يُغذّيها جسد مقبور حَيّاً، يصرخ طالبا حقه في الحياة. كل هذا جعل مشروع الخيانة الذي أجلته لسنوات

مضت تحت ذريعة العيب، الشرف، الحرام... انفجرت الخيانة لأنها وجدت التربة والمناخ الملائم لتخرج دون سابق إنذار.

شيئان اثنان لا يمكن أن أغفرهُما لصالح، بل هما اللذان شَكَّلا أُلفة جديدة. نعم هما اللذان شَكّلاني من جديد.

الأولى خيانته لي. لم تكن خيانة عادية قط، بل كان دوما خائنا لم يتوقف. لم أتفطن لذلك في البداية، كنت غبية كما يقولون، كنت آخر من تعلم. الشيء الثاني الذي فتح الطريق أمام أحاسيس غريبة انتابتني لأول مرة تجاه صالح. كان يمكن أن أغفر خيانته أُسوة بأغلب النساء في بلدي اللواتي يتجرعن مرارة الخيانة بصمت. الشيء الثاني الذي ولَّدَ فيَ إحساس يبعث على الرغبة في الانتقام في جعله يتوجع، عدم اهتمامه بأبي وهو يموت، ظل أبي لشهرين كاملين في مستشفى عمومي، لم يُظهر زوجي أي نوع من التضامن، أي نوع من الواجب تجاه صهره، أب زوجته، لا جد أولاده، قلبه تحجر مع مرور الزمن. كل سنة يزداد تحجرا وبُعدا حتى مع أبنائه، انحصرت المسؤولية عنده في توفير المسكن والمشرب والملبس. وفوق ذلك لم يعد راضيا، يغضب لأتفه الأسباب، يؤنب أبنائه على أبسط الأمور.

شهران متتاليتين لم يفكر حتى في مجرد زيارته. أضيفت فقط إلى لائحة حوارنا الروتيني اليومي على العشاء. أضيف سؤال آخر.

– اشنو أحوال بوك اليوم؟ خير؟ قريب يخرج من السبيطار؟

بكيت في اليوم الأول لعله يستفيق. لعله يفعل شيئا، بكيت في اليوم الثاني، لم يتحرك قلب صالح، لم يتزعزع من مكانه. صرت بعد ذلك أجيبه وأنا أنظر إليه بحقد لم أعهده في نفسي ولم يسبق لي

أن أحسست به حتى عندما علمت بخيانته. خلقت له ألف عذر، جل الرجال كذلك. بل كل الذكور يظلون أسيرين لقضبانهم الذكرية. لكن عند مرض أبي اختلف الأمر حقدت عليه من كل قلبي. أجيبه دائما:

- لاباس الحمد لله قريب يخرج.

كنت دائما أقصد أنه سيخرج إلى القبر قريبا لا إلى مكان آخر. نعم كنت أعرف النهاية المحتمة لمرض خبيث استوطن الرئة.

لكن هناك أمراضا أشد فتكا من هذا الخبيث.أمراض تستوطن القلوب والعقول، أمراض مُزمنة وأشد فتكا من غيرها، إنها الأنانية، الكراهية، الحقد، التكبر... وما تنتجه من تكبر وحسد إلى غير ذلك.

تفتك بالأسر، تفتك بالمجتمع، تجعله مُكبلا، مريضا، مُتسخا، غير قادر على الحركة إلى أن يموت. ستجدون آلاف المرضى يموتون يوميا نتيجة أمراض عضوية في المستشفيات وغيرها. وفي المقابل، ستجدون آلافا بل ملايين العلاقات والأسر تُدمر يوميا نتيجة الكراهية، الحسد، الغيرة، التكبر... الخ.

مات أبي. بَكَيته وحدي. أبنائي وعائلتي الصغيرة شاركوني البكاء، وجدت في دموعهم العزاء الذي لم أجده في حضن صالح وقلبه، لم يحضر الجنازة كما ينبغي لصهر أن يفعل. اعتذر بعذر كان أقبح من ذنب.

كرهته، نعم يومها كرهته، تسربت الكراهية والحقد إلى قلبي تجاه صالح لأول مرة، أُصبت بالعدوى كما ستتسرب الخيانة أيضا فيما بعد. انتقمت منه في موت صهره حَمّة، لم أخبره عمدا، وحرصت بشتى الوسائل ألّا يخبره أبنائه.

- بايكم لاهي برشة مازال كي جا من السفر من بعد توا نقولوا أنا تلهاو فقرايتكم يزي.

لم يعد له في قلبي مكان. أيقظ في نفسي الكره القديم للذكور. بعث من ذاكرتي نظرتي القديمة لإسكندر الذي لم يتزوجني لأن أهلي فقراء، لأنني لست من مستواه، من مقامه. وهذا تزوجني لكنه ظل ينظر إلى أهلي النظرة نفسها التي نظر بها إسكندر قبله. لم يشفع لي عنده اختلاط الدم والأبناء. يلحس مهبلي في نشوته كالكلب المسعور وبعدها يتأفف من مجالسة أبي. يومها قلت عليه كما قلت لإسكندر. وغد حقير.

مات أبي المسكين في صمت كما عاش في صمت. مات كأنه لم يمُر من هنا يوما. مات وهو يحمل معه كل آلامه وأحلامه التي لم تتحقق. مات وهو يحلم أن يحُج البيت الحرام. لشد ما آلمني أنني لم أستطع أن أحقق له أمنيته.

عاش يتصارع مع اللقمة، لم يتصارع مع شيء آخر، اللقمة فقط. مات، لكن لم يمت أمثاله، إنهم يعيشون بيننا، يتألمون في صمت. ستجدونهم في كل الأماكن. لو أرهفنا السمع قليلا لسمعنا أصوات آلامهم، أصوات أمعائهم وهي تئن من الجوع. ستجدونهم دائما في طوابير. يحرصون أن يعيشوا في طوابير. بل قُذف بهم إلى الطوابير. ستجدونهم ينتظرون في طوابير المستشفيات. ستجدونهم ينتظرون كل صباح في طوابير الحافلات المتهرئة. لينظفوا حدائقكم، ليحرسوا عمارتكم. ستجدونهم في كل الطوابير يحملون آلامهم يعالجونها بابتسامة بلهاء لا معنى لها. إذا وجدتموهم أطباء كنتم، طلبة كنتم، موظفون كنتم، أيا كنتم... ولم تستطيعوا أن تقدموا لهم

شيئاً. ابتسموا، ابتسموا، ابتسموا فقط. لأن في ابتسامتكم مواساة مواساة حقيقية لآلام لا تعرفون عنها شيئاً، ابتسموا، أرجوكم ابتسموا فقط لا غير.

صالح يزداد غنى يوما بعد يوم، عاما بعد عام. أصبحنا نسكن قصرا. يكون كريما في كل شيء إلا إذا تعلق الأمر بعائلتي يصبح أشح من البخل نفسه. هو يعلم أنني أساعدهم، يغض الطرف أحيانا ويكتفي بالتلميح في أحيان أخرى. تلميحات تنم عن عدم رضا. عندما مات أبي استيقظ حسي الأنثوي فجأة واستيقظت رغباتي التي دفنتها باسم الشرف والعيب والحرام من سُباتها، لُمْتُ نفسي كثيرا على غبائي القديم، لماذا لم أشك فيه يوما أبدا؟ لأكتشف في الأخير أنني آخر من يعلم. زوجي دون جوان زمانه، بل مشهور بفحولته التي تركت أرضي تئن من العطش والجوع. لتسقي أراض أخرى بكرم وسخاء منقطع النظير.

التقيت به صدفة في حفلة من حفلات السفارات الأجنبية ببلادنا، قدّمني إليه زوجي.

– سي فلان عرفي في الوزارة.

– ع السلامة مدام ألفة.

لقاء عادي برجل أقل من عادي، كأي لقاء لم يكن ليُخلّف في نفسي أيّ أثر لولا ذلك اليوم. كنت أنا وسلوى أختي في المنزل. دخل السائق المُكلف بخدمتنا وهو يحمل باقة كبيرة من الزهور فوقها علبة استغربت أن يحملها هو.

– ما هذا؟

- لقيتها عند العساس مانعرفش شكون بعثها مكتوب عليها اسمك مدام.

فتحنا العلبة.

- عيد ميلاد سعيد مدام ألفة، كل عام وأنت بألف خير دمت متألقة. أتمنى أن تتفضلي بقبول هديتي المتواضعة بهذه المناسبة السعيدة.

ربما لو لم تكن سلوى معي يومها لما صار الأمر كما صار عليه من بعد. كانت قلادة من الماس، نعم من الماس، كعادتها سلوى جنت خرجت من عِقالها.

- محلاها ألفة موش نرمال «ديامون» مالا زهر عندك مع الرجال مش كيفي إلا طارت كسكروت كفتاجي.

لم أستوعب ما أنا فيه. ما هذا؟ إنه واضح شيء لا يصدق، كيف يمكن أن تصل به الوقاحة إلى هذا الحد؟

- أية وقاحة راجل «جنتلمان « يعرفك ويعرف راجلك تفكر عيد ميلادك وهدالك هدية ما فيها شئ ألفة خيتي.
- تترهدني ولا شنو حكايتك أنت؟ هذي شركة الماس مش دبوزة «بارفان».
- ألفة أختي ماعجباتكش الشركة أعطيها لي، وفات المشكلة اكهو ما صار شي. وأخذت القلادة.

رن جرس هاتفي النقال، ارتعبت، كاد يُغمى عليَ، رقم مكتب صالح ما هذا؟ خدعة. السائق أخبره، سيستفسر ماذا سأقول له؟ لم أستجمع قواي بعد.

- الو صالح.

- عالسلامة ألفة موش صالح أنا ..... عرفتك باش تسخايلي صالح هذاك علاش كلمتك من النومرو هذا باش نضمن تردي عليّ، إن شاء الله يكون عجبك الكادو.
- لا عجبني يعطيك الصحة.
- ألفة حاجتي بيك في موضوع كان معندكش مانع نحب نشوفك.
- باهي تو نتلاقو أنا وياك ومدام السيدة وصالح تحب تتفضلوا بحذانا مرحبا.
- لا ألفة حاجتي بيك وحدك في حاجة تخصك أنت، خمم في عقلك تو نتصل بيك غدوة الحي.

تكلم بدون رسميات، حتى كلمة مدام لم يستعملها، تكلم كأنه واثق من نفسه وأنه سيحصل على ما يريد. سلوى كانت تلتقط كل كلمة، ألصقت أذنها بسماعة الهاتف. كأن الأمر يعنيها، يخصها هي.

- أمانك ألفة نمشو ونمشي معاك.
- يا بنتي فكيك من اللعب الماسط ما عندو وين يوصل كان للمهالك.
- بالله ألفة أش تعمل قدام لي يعمل فيه راجلك؟ النهار الكل من وحدة لوحدة وسيادتك مانجمتش حتى تكلموا تقولو علاش هكا؟ باش نقابلوا راجل لمصلحتك وأنا معاك ياخي فيها حاجة.
- سلوى سيب عليك من الريق الراجل كبير ومعرس وما فيه ما يتعجب.
- نعم ما فيه ما يتعجب. لا لالة فيه برشة ما يعجب، اخزر الشركة، العنوان ظاهر، والمعرس ينجم يطلق لالة. أمانك ألفة بالكشي نعجبو أمانك زح.

لست أدري أ كان كل شيء من تخطيطه أم أن الصدفة لعبت دورها. عاد صالح في المساء وكالعادة في حوار النشرة المسائية على العشاء قال لي أنه سيسافر لمدة أسبوع خارج البلاد وأضاف متهكما.

– فرصة تشبعي بأمك وأختك يباتو ويصبحوا معاك هنا هههههههه.

لكنها كانت فرصة من نوع آخر فرصة شبع فيها جسدي المتعطش للحب.

أسبوع واحد كان كافيا لأصبح فيه عشيقة لسي .....

كيف تم الأمر؟ أنا لا أكاد أصدق أن ذلك تم.

اقتنعت أو أقنعت نفسي كذبا أنه ربما يُعجب بسلوى، هي صغيرة جميلة ينقصها الكثير من التركيز فقط، نقطة ضعفها مع معشر الذكور التسرع. أعطيتها دروسا كثيرة في التأني دون فائدة.

ساد اللقاء الأول الشعور بالامتعاض، امتعض كثيرا لوجود سلوى أختي معنا. وأنا بدوري كنت مُمتعضة، شعرت بالنفور، بالخوف، بالرعب. كل السيناريوهات أمامي، ماذا لو كان فخا؟ ماذا لو كان هناك من يراقبني؟ صالح ليس بالرجل السهل بتاتا. سيطرت عليَ رغبة كبيرة في الانتهاء من هذا اللقاء بأسرع ما يمكن.

تصرف كأنه يقرأ أفكاري. يعرف كل شيء، ثعلب ماكر، اتجه مباشرة إلى الجرح ليستفزه ليعطيني مبرر القبول لما سيطلبه مني من بعد. ألمح من البعيد القريب إلى خيانة صالح مبديا استغرابه كيف لرجل يملك جوهرة كالتي يملكها صالح أن ينظر لنساء أخريات.

متهما هذا النوع من الرجال بالغباء. هذا الحديث زاد من توتري وانزعاجي، كل مرة أهم فيها بالانصراف أجد قرص سلوى لي بالمرصاد. فجأة غيّر مسار الموضوع بشكل كامل كأنه قرأ ملامح وجهي. عرف انزعاجي محوّلا مسار الحوار لسلوى يكافئها على قرصها لي.

– سمعت بيك «مدموزيل» سلوى تلوج على خدمة يا اخي لتوة مسهلش ربي؟

كمن استفاقت من غفوتها كمن مد لها حبل كانت تنتظره.

– عندك خدمة ليّ سي.....؟

– من غدوة، في جمعة تصبحي تخدمي على خاطر ألفة راهي غالية برشة.

لم يعجب سلوى الجواب، كأنه كان يعرف سبب مجيئها، ويضع حدا لطموحاتها. لكن في المقابل يكافئها على مجيئها على مساعدتها له. أجابته سلوى في شبه تحد.

– ماتقوليش باش تخدمني في معمل ولا شركة السماح؟

– توة هذا كلام أحنا متاع الشي هذا. تخدم موظفة محترمة في الدولة ومترسمة من شهرك الأول زادة.

كان هذا كافيا، ضربة قاضية لم تكن تستطيع سلوى أن تخفي فرحها.

– بالرسمي تحكي سي ..... أمانك؟

– ظاهر مدام ألفة مستعجلة ما عندهاش وقت.

زادت حدة القرص الواحدة تلو الأخرى.

– لا ما فمة حتى مشكل تفضل تفضل مانيش مستعجلة.

– لا ما يسالش أنا زادة عندي ما نعمل إذا الآنسة سلوى تحب تخدم جيب لي غدوة ملفها مداااام ألفة.

أصر على كلمة مدام هذه المرة كتعبير واضح على انزعاجه من فتوري. وفي المقابل عرف كيف يكسب حليفا إلى جانبه كأن حماس سلوى ورعونتها أعطاه أملا كبيرا بأنني سآتي غدا وبالطريقة التي يحب ووحدي أيضا.

أمام إصرار سلوى والتي استعانت بأمي وأمام توسلاتهما المصحوبة بلعنتهما لصالح واصفين إياه بالبخل والشح مذكرين موقفه مع أبي إلى غير ذلك.

أذعنت لرغبتهما وأنا أعرف تمام المعرفة الثمن. كنت أعرف أنني سأنزلق نحو المجهول. رغم ذلك ذهبت ربما متذرعة فقط بتوسلات سلوى وأمي لكنني بداخلي ذهبت مستجيبة لنداء أقوى من توسلاتهما.

هذه المرة لم نتقابل في بهو الفندق، كان اللقاء في جناح خاص بالسيد ... وجدت من يرشدني مباشرة بعد دخولي الفندق.

– تفضل مدام سيادتو يستنى فيك.

عندما عدت إلى المنزل لم أصدق أنني فعلتها، إحساس ممزوج بأشياء مختلفة ومتناقضة، يمتزج فيها التقزز باللذة، الندم وبالثأر أيضا.

في اليوم الأول. أحسست بالندم. لم أقوَ على النظر في وجه أبنائي. ندم جعلني أنهار، أحسست بفظاعة ما فعلت. يومها شعرت أنني خنتهما أيضا وخنت نفسي، خنت كل القيم الإنسانية، انهرت دفعة واحدة، تهاوى حصني الرملي، أصبح في خبر كان. والأكثر

من ذلك، خنت المرأة في داخلي. يومها انحططت إلى درجة أنثى تتصرف وفق رغباتها وأهوائها تستسلم لرغباتها، لست امرأة أو بعبارة أُخرى لم أَعد امرأة حرة.

المرأة الحرة تحدّ، قوة أكبر من الرغبة ذاتها. المرأة الحرة جعلت من الحرية مطية ترقى بها إلى أن تكون حرّة أبيّة على كل ما ينغّص قيمتها ومروءتها ويمس شرفها. طردت سلوى التي وجدتها تنتظرني. والتي رأت فيما فعلت انتصارا لكرامتي المجروحة.

لا يمكن أن يكون الأمر كذلك، لا يمكن أن يكون مُبررا لما فعلت. أن انتصر لكرامتي هو أن أتغلب على ضعفي، على احتياجي. أن أطلب الطلاق.

جبانة أنا، رضخت وأذغنت لخيانة صالح خوفا من خسارة مكاسبي المادية. لم أمتلك القوة الكافية لمواجهته ولكنني امتلكت كل القوة الرخيصة لخيانته، استجابة أيضا لاحتياجات أسرتي التي لم يكن في الحقيقة مسؤولا عن وضعها بتاتا.

حقيقة غابت عني، لا بل غيبتها أنا بجهلي المتعمد. كان من الأجدر أن أكتسب قوة أخرى على التحدي، على العمل لأعطي لأسرتي ما تشاء وما أملك أنا، وليس صالح. أسيرة أنا لرغبتي، لعجزي، فهويت.

في اليوم الثاني خفّت وتيرة الندم، بدأت تتلاشى أمام إصراره على مكالمتي. لا بل أمام امتلاكه لمفاتيح نقاط ضعفي. بدأت ذاكرتي تستعرض لحظات المتعة ليلتها بكل تفاصيلها المملة والممتعة. وبدأت النفس تهفو وتحن إلى تكرارها.

تذكرت أني خفت أن يسمع صوت تأوهاتي وهو يلحس مهبلي، لحسه كأنه قطعة شكلاطة. أوصلني إلى قمة النشوة، امتزجت برغبة جامحة كاذبة في التبول. إحساس غاب عني لسنوات خلت، أصبح من الذكريات، تستعرضه الذاكرة اللعينة في لحظات العطش الجنسي، لكنه أمسى وأصبح حقيقة عشتها، لامستها تمتعت بها.

– هيا امااااااااانك دخلو فيسسسسع فيسسسع امااااانك

حرصت أن أرى كيف يغزو هذا القضيب مهبلي، ضاعف ذلك من متعتي، تسارع تقلص عضلاتي في رغبة جامحة أن أحتويه، أن أصير أنا وهو جسدا واحدا بكل ما أوتيت من قوة.

وأنا أتقوقع كالمحارة منتظرة تدفق سائله المنوي داخل أحشائي. شعرت بدفئها بسخائها وهي تروي عطشي تُرخي عضلاتي. تقول لي أنك لا تستطيعين أن تحتوي جسده. لكنني أنا السائل العجيب أكسير الحياة قد أتحول إلى جسد يحويكما الاثنين تريان فيه أنفسكما.

بعد ذلك انتابني إحساس بالتقزز وأنا أنظر إليه متخيلة إمكانية أن أنجب منه. عافته نفسي، أصبحت صورته مقترنة في ذهني بصورة القرد كما يقول صالح. آه منك يا صالح، لم يسبق أن شعرت بالتقزز منه حتى في أوج غضبي عليه، كنت أبقى في فراشي مستلقية عارية وأنا أتأمله. وهو يقوم ليرتدي «روبه» الأبيض أو الأزرق، ظل وفيا لهذين اللونين، يشعل سيجارة ويبدأ، يأتي كلامه من مكان بعيد، قد يهذي، قد يقول أي شيء تافه، لكنني كنت أستمتع بكلامه، بعد ذلك يدخل إلى الحمام، أحرص في الغالب أن أُحمّمه وأن أمصّ عضوه الذكري تحت الماء.

- ياخي ماتشبعيش؟
- مستحيل نشبع منك حبي.

الآن في فراش غير فراشنا ومع رجل آخر، أستيقظ في شوق لأنفاسك، لشفتيك، صِرتَ أبعد مما كنت عليه. وصرتُ أنا مُدنسة خائفة. أنا الآن مستلقية عارية في سرير غير سريرنا ومع رجل غيرك.

في ذلك اليوم بعد أن رويت عطشي قررت أن أهجره، لن أعود إليه بعد اليوم، لكنني دائما أعود. صار إدماني، أدمنت عليه وأنا أكرهه، أتقزز منه. كما يدمن المدخن على السيجارة وهو يقرأ كل يوم على غلافها «التدخين قاتل»، ومع ذلك يدخن مستمتعا متلذذا كأن الدخان يروي عطشا لا ندري كنهه، كأننا باستنشاقه يسيطر دخانه على حواسنا ومداركنا، يفقدها الإرادة. يصبح هو الحبيب والعدو في آن واحد. تظل محتاجا إليه. رغم إيمانك ويقينك بأنه يدمرك كل، يوم يسرق منك شيئا، ستكون غدا في أمس الحاجة إليه. تحاول أن تهرب، تقاوم ليوم، ليومين، لشهر. لكنك في الأخير تعود مستسلما أكثر من قبل. قليلون هم من امتلكوا الإرادة واستطاعوا أن يضعوا حدا. وهناك من انغمس أكثر وتحول الدخان حشيشا. بعد كل عملية أهرع مباشرة إلى الحمام، أريد أن أغسل قذارتي أن أتطهر. أسمع صوته.

- نجي ندوش ليك حبي؟
- أصيح بكل حزم لا لا وأغلق الباب بالمفتاح.

أعطاني ما لم يعطني صالح. يظل يحوم حولي وراء كل عملية، يلحس مهبلي بكل إفرازاته، لا يعافه. يقزّزني، أعامله بجفاء ظاهر.

- تي يزي عيفتني في روحي. شبيك؟

– مانشبعش منك حبي مانشبعش.

ومع ذلك لم أعطه ما أعطيته لصالح. دائما أغادر بعد أن أروي عطشي، لا أمكث أكثر من نصف ساعة. أغادر وأنا عاقدة العزم على ألا أعود، على أن يكون ذاك اليوم آخر يوم، وبإصرار منه حيث يظل يحوم ويحوم، يقتحم عليَ خلواتي، أعامله بقسوة، بجفاء، وهو يزداد لطفا وتزداد الهدايا. نقود وذهب. وتستيقظ الرغبة من جديد. وأعود من حيث بدأت دائما في اليوم الثالث أو أسبوع على أبعد تقدير، أكون قد استسلمت لإدماني. بل صرت متلهفة له، وأعود أجتر الدائرة نفسها كل مرة. مع مرور الأيام اختفى الإحساس بالندم، اندثر، لكن الإحساس بالتقزز والقذارة لم يبارحني أبدا أبدا.

اعتقدت أن الأمر لا يعدو أن يكون مغامرة ونزوة. وستنتهي يوما، سيشبع، سيجد أخرى وينتهي كل شيء. لكن السيد أو سَبعي كما سيصبح اسمه في قاموسي من بعد، لم يكن يبحث عن مغامرة، كان الأمر أكثر من ذلك. فهو يريد أن يتزوج، مستعد أن يطلّق زوجته بل بدأ في إجراءات الطلاق.

– ألفة أنا نحبك من مدة ومستعد نكمل حياتي معاك كان أنت موافقة.

لم أقل شيئا، ظننته يهذي نتيجة النشوة والخمر.

لكن طريقة تعامله فيما بعد أثبتت عكس توقعاتي.

– الو حبي كيفاش صبحت عروستنا؟

– يا ولدي اينا عروسة صليع النبي؟

– أنت تخلقت عروسة ويلزم تبقاي عروسة ولابسة تاج زادة، راني ما نفدلكش وباش تكوني عروستي أنا.

- أنا معرسة يا راجل وإلا نسيت، احشم.
- نطلقوك
- اللطف عليَ وولادي لشكون؟
- ولادك ولادي.
- وصالح باش يسكت؟ تخدموا مع بعض راكم ولا نسيت.
- صالح نتاعك خليه عليّ، نبعثو في نهار بحذا القرودة في إفريقيا، ملحق ندبرلو حاجة، أمرو محسوم عندو مدة.
- باهي باهي خلينا من الكلام هذا توا.
- اسمع حبي هاني صبيت ليك توا حاجة في حسابك في البنك ابعث الحاجة تعمل عمرة. اسمع حبي العشية كيما اتفقنا، شهر عسلنا الجمعة هاذي.

لم أصدق الأمر، ظننت أول الأمر أن الرجل يمزح، كيف يتلاعب بي هكذا. من أين له هذه القوة في إدارة الحوار؟ كيف يعرف نقاط ضعفي؟ هل يمكن أن يكون كل ما قاله صحيحا؟ ليس تحت تأثير الخمر كما ظننت؟

في هذا العمر عندما تبدأ المرأة معركتها مع الطبيعة دفاعا عن جمالها عن أنوثتها ضد كل من يُحاول أن يُشعرها أنها بدأت تأفل. حين يبدأ العد التنازلي لجمالها، تبدأ التجاعيد ترسم خطوطها مُعلنة قرب هجومها الكاسح. يبدأ الجسم يفقد تناسقه يغزو الشعر الأبيض... كل هذه العلامات تُنذر بقرب الأُفول، لكنها في المقابل تصرخ، تقول تمتعي أكثر، فما هي إلا سنوات قليلة وينتهي جريان نهر الحب الأحمر.

لماذا يسمونها فترة اليأس؟ لازالت بعيدة عني نعم، لكنها أقرب من أي وقت مضى في الوقت نفسه. في هذه المرحلة بالذات تكون فيها المرأة في أمس الحاجة للحب، للحنان. لا، بل المرأة دائما تحتاج إلى الحب. تحتاج من يُدللها ولو كذبا، من يقول لها كلاما جميلا، لا تحتاج إلى من يركنها في ركن كأنها أثاث انتهت صلاحيته. كأنها تحفة ولى زمانها. والمتحف أولى بها.

صالح، آه من صالح، لم يعد كما كان، جسدي المنهك المتعطش لم يعد يثيره أبدا. أصبح لقاؤنا الشهري وإن تم، عبارة عن احتكاك مُمل لجسدين متنافرين. كأنها حركات رياضية روتينية. غابت الكلمات التي كانت تصنع النشوة، غاب الرقص المصاحب للجنس، كم من مرة كان يقول لي فيها.

- حبي اشطحي لي عريانة نحبك هكا.

بعدها ينقض عليَ كالأسد، كل ذلك أصبح ذكريات الآن، يأتي مُفعما بالحب، أصبح يبحث عن الصغيرات، عن اليافعات، لم أعد أثيره. يأتي وقد روى ضمأه ليتحول أمامي، وأنا أُحاول أن أغريه بكل ما استطعت، موسيقى، لباس مثير. لم يكن يحترم رغبتي. يقدّرها، كان يعرف أنني أشتعل، لكنه لا يأبه، أناني. ومع ذلك يحاول أن يعطي مبررا سخيفا لإعراضه، يتحول إلى واعظ ديني.

- اليوم تاعب باش نموت من الخدمة. كل عمر وليه أحكام ألفة. كبرنا بدينا نكبرو، ويعطيني بظهره.

بدأت تكبر عليَ أنا فقط؟ لم أواجهه يوما بخيانته لأنني عندما اكتشفتها كنت قد أخرجته من حساباتي أصلا، أخذ ما أريد وهذا يكفي. أما الآن هل أشرقت شمس جسدي من جديد؟ أحسست

بالنفور أول ما رأيته، بل بالاشمئزاز. المرأة أكبر عاشقة للجمال وليس الرجل. وسبعي لا يملك منه إلا النزر القليل، لكن في مقابل ذلك يملك أشياء كثيرة، يملك قضيبا ذكريا تتمنى أي أنثى أن يُداعب مهبلها. قضيب أطول حتى من الذين شاهدتهم في الأفلام الإباحية. مقوّس، قضيب مُغرٍ، ما إن تشاهده أنثى حتى تقف لحظة لتتأمله لتداعبه لتمصّه وتختبر متانته، يجعلها تنسى للحظات وجه صاحبه الدميم. لا تشعر بذلك إلا عندما تحقق كفايتها، عندما تشبع، هنا فقط تنظر إلى هذا الوجه الدميم. تتمنى لو كان غير ذلك هنا، فقط تخرج تلك الأحاسيس المملوءة بالتقزز. لكن ما إن تستيقظ الرغبة من جديد في الجسد حتى يغيب وجهه تماما وتسيطر عليك صور المتعة والإحساس بالنشوة الذي يمنحه لك قضيب كهذا. كأنه وحده عضو مستقل عن صاحبه.

تعامل معي على السرير كملكة، كجوهرة، لحس جسدي كله، أشعرني بأنني أنثى أعيش هنا. أن هناك حياة داخل هذا الجسد، مليئة بالعطاء والرغبة، هناك نار مشتعلة تحتاج من يرويها. أحيا سمعي بكلمات لم أسمعها منذ مدة قال لي إنني جميلة فاتنة، إنني قطعة شهد. إنني خلقت لأحب، بنى لي قصورا من الكلام الجميل.

خرجت منتشية رغم اعتقادي وقتها بأن كل ما قاله لا يعدو أن يكون إطراء تحت تأثير النشوة، أما ألا يكون الأمر كذلك وأن تكون لكل تلك الكلمات معنى حقيقي، ويولد هذا المعنى ليصير حقيقة نلمسها، فهذا شيء لم أتصوره البتة.

قَدَّم سبعي لعائلتي في شهر ما لم يقدمه صالح في عشرين سنة. سلوى توظفت، اقترح أن تسكن أمي وأختي في شقة له في «حي النصر» بهذا تكون أمنية أمي قد تحققت، المبالغ التي أُودعت في حسابي البنكي أكثر مما كنت أتصور أو أتوقع.

فقدت توازني، اختفى الإحساس بالندم تماما. لم أعد أعرف كيف أتصرف، زاد على ذلك رؤية حَمّة زوج فتحية لي أنا وسبعي نخرج من الفندق نقهقه وأنا أشرب سيجارة، تسمرت في مكاني، تجمدت، لقد رآني مما لا يدعو مجالا للشك. للحظة أحسست أني انتهيت، لكن سبعي كان أكبر مما تصورت.

– ما تخافش جملة ما هواش باش يصدقوا.

– كيفاش راجل أخته راهو.

– لا خاطر عامل شوفور يعس عليك من مدة.

– اه اه.

– أي نعم والشوفور تابعني ما تخافش جملة، قلوا كذبة ومش صحيح.

– الشوفور تابعك كيفاش.

– حبي الأمور هذه ما تفهمش فيها، خليك منها وحط ثقتك فيّ. المهم تبّع إلي قتلك عليه وما تخافش جملة.

لم تنتظر فتحية عودة صالح بل وجدتها في المنزل تسب وتلعن اليوم الذي لاقتني فيه باعتبارها هي السبب.

– يا مقملة ما يزيش هزك من الفقر والميزيريا هذا كفوه يا قحبة يا .....

كلمات أكثر من جارحة، لم أستفزها كثيرا، أنكرت كل شيء. مع عودة صالح خفت. لكن الأمر مَرَّ وكأن شيئا لم يقع. بل أكثر من ذلك، ارتحت من فتحية دفعة واحدة. ثقته في منظومته ورجاله أكبر بكثير من عائلته ،هذا الذي راعني وأثار استغرابي فيه.

لم أعد أعرف كيف أتصرف معه لكنه كان بعيدا بعيدا. يحلّق وحده في عالمه كأنني شيء عادي، أثاث، سيارة أو ما شابه. لم يكلف نفسه حتى استجوابي بطريقة احترافية وهو ما هو في سلك .... النسق نفسه والحياة نفسها، أستقبله كل مساء في المنزل. أكون أنا قد رويت عطشي كما يكون هو قد فعل ذلك. أنزع معطفه، الأسئلة نفسها الأجوبة نفسها، حياة كلها روتين.

أربع سنوات انقضت تطلّق فيها سبعي. غدا أكثر إصرارا من قبل على طلاقي والزواج. أربع سنين أصبحت فيها امرأة غنية بشكل ما، حساب بنكي، شقة باسمي في «حي النصر»، حرص سبعي على توفير كل مستلزمات الضمان والاطمئنان لي قبل الطلاق.

أمي اعتمرت وحجت. وصالح لم يسأل حتى. كأنهم غير موجودين، لا يسكنون في هذا الكوكب، حتى عندما مات حَمة «الطاكسيست» لم أعلمه، يستحق العزلة التي هو فيها والتي تخدم مصالحي.

أصبح شعوري تجاهه يشوبه شيء من الحقد. رغم ذلك لم أغيّر معاملتي معه. هو أيضا لم يتغير فيه شيء، يمكن أن يُشعرني بتأنيب الضمير ويوقظ فيَ الندم الذي انتابني أول يوم. هذا الضمير الذي يؤنبني كلما تذكرت أولادي. محمد علي النسخة من عمه لست أدري من أين له بهذا التديّن؟ فجأة أخاف منه أكثر من خوفي

من صالح. أتخيله يرجمني، يتبرّأ مني. كابوس يقضّ مضجعي كلّما تصورت أن أمري قد ينكشف، من أين له بهذا التديّن؟ نحن أسرة لا نعرف من الدين إلا الشهادة، لا نصوم، لا نصلي، من أين؟ لا أعرف.

ياسمين غارقة في عالمها الموسيقي، تحلم بالشهرة وبالفن، كيف سيستقبلان خبر طلاقي من أبيهما؟ بل كيف سيستقبلان زواجي من آخر؟ هل سأفقدهما؟ لا يمكنني أن أتحمل ذلك، كما لا يمكنني أن أستمر هكذا، أنا في مفترق طرق حقيقي..

الفصل 12

الحصاد المُرْ

«ما تراه الآن ليس إلّا انعكاساً لما فعلته في الماضي وما ستفعله في المستقبل ليس إلّا انعكاساً لما تفعله الآن».

طويت الكراس، أشعلت سيجارة وبدأت أجتر الذكريات وأستحضرها ببلاهة لأكتشف أخيرا كم كنت غبيا.

– تفكرين بالطلاق مني يا ابنة الكلب؟ مايزيش جيتني مكسرة ماكش بنت، ماكش عذراء، وتمنيكت عليَ قدانيش بهيم.

لازلت أتذكر ذلك اليوم، ذلك المساء، كنت قد شربت أكثر من المعتاد. لا، يومها هي من كانت تُسقيني، كانت في كامل زينتها، كل شيء فيها يُغري. لباس نوم حريري أبيض كما أحب وأشتهي، يزيد لبياض جسمها لمعانا، بل يجعلك تشعر أنك في حضرة ملاك، حورية خرجت من الجنة لتتواضع وتجلس معك. كلماتها كلها غنج مملوءة بالحب، تُسقيني الكأس تلو الأخرى يومها. مستعد

أن أشرب السم من يديها، لكنني اليوم فقط أكتشف بأنها سقتني ما هو أمر من السم. نعم هي من أسقتني الخمر لتسقيني بعدها قطرة شرفها المزيفة، انتفضت وارتعبت وأنا فوقها.

– اش عملت صالح ياشومي، كسرتني حراااام عليك حررررررام عليك.

– ياخي مثبتة دخل.

– شنو دخل، ياخي متحسش، تي مش نرمال وجعتني اييييييي.

أشعلنا كل الأضواء، طار السكر من عيني. كل شيء إلا الشرف، قطرتي العزيزة. وبدأنا نبحث عن الشرف المفقود. كانت القطرة موجودة حمراء. أشارت إليها بإصبعها وهي تبكي وتنتحب، هدأت من روعها.

– أنت ستكونين زوجتي. أقسمت لها بكل غال ونفيس أنها ستكون زوجتي.

القح...ة قدانيش بهيم بهيم بهيم مسطك.

أشعلت سيجارة أخرى، عقلي يكاد ينفجر..

لم يعد الأمر مغامرة أو نزوة أصبحت «القح...ة» تعيش قصة حب.

لا لا لا يجب أن أفكر بهدوء. الانفعال لا يفيد في شيء، ربما هي معه الساعة. أستطيع أن أقُض مضجعهما هي وذلك الكلب الآن. حدثتني نفسي للحظة أن أبعث بدورية إلى شقة غرامها. يكون قائدها لا يعرف وجه القرد أبدا. يعطيه ما تيسر من الضرب والإهانة. يُجرجره إلى أقرب مركز من المراكز. لكن الأمر لن

يستمر كثيرا. سينقلب عليَ، فكرة سخيفة. هو ليس بالرجل السهل. ربما تكون الشقة تحت الحراسة.

ثعلب ماكر يكون قد أخذ كل احتياطاته مني. أكيد مذكرات ألفة تؤكد ذلك. هو يملك عيونا داخل رجالي. ألا يكفي ذلك الكلب السائق الذي رقَّيتُه وكنت أغدق عليه بما لا يحلم به من رجاله. يجب أن تنتهي هذه اللعبة بشكل كامل، هذه العصابة لا يمكن أن تُدَمر من الخارج. نحن جراثيم ننخر في البلاد والتي لا يمكنها أن تتقدم بوجود أمثالنا.

إذا قضيت على هذا القرد ستولد آلاف القرود الأخرى. إننا نتكاثر بشكل لا يصدق، يجب أن أهدم عليهم هذه الخيمة الفاسدة. نعم، هذا هو الحل، يجب أن أحرق نفسي كما فعل «البوعزيزي». هو عندما فعل ذلك لم يكن يعلم أو يدري ولو لدقيقة أنه بعمله سيولد شرارة لما يمكن أن نسميه ثورة، انتفاضة، نسمّيه ما شئنا. لكنني أنا بإدراك وبوعي كامل مني سأحرق نفسي لأكون شرارة لثورة حقيقية، سأحرق نفسي ليس بالنار، لكن مع ذلك ستولد ثورة أتمنى أن تكون ناجحة، ثورة لا صياح فيها ولا بكاء، لا مظاهرات لا ضجيج، ثورة صامتة.. سيكون شعارها.

«أنا ضميري استيقظ، فهل سيستيقظ ضميرك أنت؟»

إننا نحن المتسخون والقذرون نعرف الشرفاء والنظيفين من رجال هذه البلاد. وهم موجودون في كل مكان وفي جميع أركان هذه الدولة. صحيح أنهم يتنفسون بصعوبة لقذارة الجو ولأننا سعينا بكل ما نملك من قوة إلى تجميدهم والحد من فعاليتهم. لكنهم

موجودون، وأنا أعرف الكثيرين منهم ولا يمكن أن أخطئ الطريق إليهم.

موجودون وينتظرون الفرصة لأداء واجبهم على أكمل وجه. مِمَّا قرأت أنه عند انتهاء الحرب العالمية الثانية عمد بعض كبار قادة الجيش الياباني إلى الانتحار بشكل جماعي. بطريقة فظيعة كدلالة على الإحساس بالذنب وتأنيب الضمير على هزيمة اليابان في الحرب. لم يتحملوا رؤية بلدهم تهزم وفضلوا الموت على ذلك.

ترى؟ لو كان عندنا قليل من هذا الإحساس كيف سيكون مصيرنا؟ نحن منا خونة كُثُر ورغم ذلك نمتلك الوقاحة الكافية لِنِدَّعي الوطنية ونتدثَّر بعلمها دون حياء. والويل ثم الويل لكل من يقول عكس ذلك.

ماذا يفيدني أن أنتقم من ألفة وهذا القرد؟ ألفة أنا صنعت فسادها، أنا جعلتها هكذا، وهذا القرد، أنا وأمثالي أيضا أبدعنا في صنع فساد هذه البلاد.

حياتي لم يكن لها معنى ولن يكون لها، لم أسال نفسي ماذا أريد بالضبط؟ المجد؟ أي مجد يُبنى على دموع الأبرياء؟ أي ثروة تأتي من السرقة؟ لص كبير أنا. نسرق ونعاقب اللصوص، نتجاهل مسالك التهريب، ونحارب الإرهاب ووو...

يجب أن تنتهي هذه المسرحية، هذا الكابوس، بلادنا تستحق أحسن مما هي فيه بكثير.

ارتحت كثيرا لما وصلت إليه. اتخذت قراري هذه المرة بشكل يريح ضميري، يجعلني أتخلص من آثامي دفعة واحدة.

– عليَ وعلى أعدائي، سأحرق نفسي لأكون شرارة لثورة حقيقية.
عُدت إلى كراس ألفة وكتبت ما يلي:

عزيزتي ألفة

قد يكون الكثير مما قلته وكتبتِه صحيحا ويحمل بين طياته الكثير من الصحة. مشكلتنا أننا لم نتحاور كما ينبغي لزوجين مثقفين أن يفعلا، وربما هذه مشكلة أزواج كُثر في مجتمعنا.

تكلمتِ كثيرا عن خيانتي لك وكتبت الكثير عنها في كراسك اللعين، لو واجهتني بها ربما كنت سأشعر بالخجل، سأكذب، سأفعل شيئا، لكننا في الأخير كنا سنصل إلى حل أفضل بكثير من النفق المسدود الذي وصلنا إليه الساعة، لكنك فضّلت الصمت. لست أدرى لماذا؟ ربما لإحساسك الداخلي بأن ما فعلته لا يعادل خيانتك وغدرك السابق لي.

أما الآن لا، وألف لا. خيانتي لك كلها لا تُعادل في جزء بسيط ما قمتِ به من غش وخداع لي ولعائلتي. لا تعادل ادعائك بأنني هتكت شرفك وجعلتني أتحمل بشهامتي وِزرًا لم أقترفه.

أنت إنسانة منحطة. ربما وجدتُ لك بعض العذر وأنا أقرأ كلماتك، ظروفك وظروف عائلتك. لكنني لست قِسا لأمسح آثامك وأغلاطك. الآن أنت في مأمن حقيقي. لأنك ببساطة أم لأولادي.

أما كان حريّا بك وأنت المخادعة من أول يوم أن تغفري لي تسلطي وتكبري وخياناتي تقديرا لشهامتي التي تعرفينها وحدك والتي لا أعرفها حتى أنا بنفسي. أنت كنت تعرفين دوما أنك خدعتني ولم تعوضيني على ذلك في شيء. كنت أخونك صحيح،

لكنني في المقابل جعلتك سيدة لم تحلمي بشهادتك أن تكونيها يوما. كنت جد مُحقة في طريقة تعاملي مع عائلتك، لم يكن هناك من مبرر يجعلني أفعل ذلك، شعرت بالاشمئزاز من نفسي عندما قرأت كلماتك.

الكبر والتكبّر الفارغ. نعم إنني الآن والآن فقط أمتلك الجرأة الكافية لقول ذلك. لو أتيح لي أن أعيد حياتي، أن أنتجها من جديد. ما فعلت ذلك، وما كنت أنت بطلة فيها. الآن أشعر بالاشمئزاز من نفسي من أشياء كثيرة فعلتها. لم أتنازل ولست أدري لماذا؟ تصورات وهمية تنتجها أحيانا بل غالبا عقولنا، نفوسنا، لا أدري. لتخلق لنا مكانا معيّنا، تاجا مزوّرا لا يُوجد إلا في مخيّلتنا ومخيّلة من يُغذِّي فينا هذا الإحساس، هذا الشعور، ليس لكونه حقيقة، بل لغاية في نفسه. نرى أنسفنا عِظاما في حين يرانا الآخرون أقزاما. أقصد بالآخرين من يملكون نقاء البصيرة.

لكننا للأسف نصدق ذلك ونعيشه، نصدق عظمتنا، تفوقنا على الآخر. كنت أسيراً لكبريائي، شكرا لأنك أيقظتني، لكن في المقابل ظللت أنت دوما أسيرة لرغباتك، لغيرتك ولحسدك.

كنت دائما ترين فيَ المطية لعالم آخر، كنت تحبينه وتحلمين به، والكارثة كنت تبحثين عن بطاقة ولوج لك ولعائلتك، وبوقاحة منقطعة النظير كنتم تطلبون حقا وليس أُعطية، لأنك تعرفين جيدا كم تغاضيت عن الأعطيات. أما أن يصير الأمر حقا! رفضته بشكل أدبي أكثر مما هو مادي. هذا الشعور، هذا الإحساس هو الذي جعلني أتصرف مع عائلتك كما تصرفت. وأنا أعتذر منك على ذلك بصدق. أنت على الأقل كنت تحملين بطريقة أو بأخرى نوعا

من البر تُجاه عائلتك وأسرتك. الشيء الذي افتقدته أنا وساهمت أنت في أن أفتقده.

ألفة أنت إنسانة قذرة، حقيرة. للحظات كثيرة أردت قتلك، دفن عارك. لكن في ذلك تحطيم لمستقبل أبنائي. وهذا فقط ما شفع لك عندي ولتعلمي ذلك.

ألفة، أنا أقيّمك انطلاقا مما قرأت ورأيت في شريط الفيديو. لو تتصورين للحظة إحساسي وأنا أراك عارية أمام رجل آخر غيري. ترقصين وتغنين كالعاهرات، للحظة ندمت، بل كرهت نفسي كيف سمحت لهذه العاهرة أن تكون أُمّاً لأولادي.

لقد رأت فيك أمي ما لم أره. أنا المخدوع فيك من الأول للآخر. حياتي معك وهم، خدعة كبيرة لأنك دشنت بدايتها بخدعة. وختمتها بخيانة مقززة.

وأنا أراك تُعرّين نفسك بنفسك بقلمك على هذا الكراس. كانت فيه حقيقتك التي جاءت باعترافاتك وقلمك أكثر قذارة مما رأيت في هذا الفيديو وهذه الصور اللعينة. تصوري ألفة لو أعطيت لمحمد علي ابننا صورة واحدة، لو مكّنته من مشهد واحد.

- سبعي عجبك رقصي؟

ألن يكون هذا عقابا كافيا لك؟ لكنني ولأنني ابن عمار الطيب ولأنني أخو الطاهر الأستاذ المربي المعلم. ولأنني تربيت على الشهامة. سأغفر لك إكراما لأولادك، ولأنني أُشفق على ابني أن أُلوث ذاكرته بمشهد مقزّز أُمه فيه عارية ترقص لرجل غريب، أشكرك لأن اعترافاتك المُدونة على كُراسك اللعين طرد أكبر شك كاد أن يقتلني، في أن يكون أحد أبنائي ليس من صلبي. شكرا لأنك

بهذا الكراس طردتِ كابوسا كان يقُضُّ مضجعي في أن يكون كل ما عشته معك. كذبا خداعا من الأول. شكرا لأن في حياتنا معا التي عشناها شيء جميل وحقيقي. أبنائي أنا وحدي أيتها العاهرة الفاجرة.

ملاحظة:

كنت قد عقدت العزم على مواجهتك، لكنك لن تقولي أكثر مما قرأت، وهو يكفي إلى أبعد الحدود. وثانيا كما كتبت أنت وقلت، نتواجه ونعاتب مع من يعنينا أمره، من نحبه. أنت لم تحبيني من الأول، وهذا ظاهر، كان إعجابا شيئا من هذا القبيل، أما أنا فأنت الآن لا تعني لي أي شيء، أقولها متحررا من كل عقدي. لكن لا يمكن أن أنكر أنك كنت إلى وقت قريب تعنين لي شيئا، بل أشياء كثيرة.

أنت طالق طالق طالق. تمتعي بملفك الشخصي وحدك عندما تجدينه، أو برفقة القرد الذي فضّلت أن تكملي حياتك معه، فالقرود تعرف بعضها البعض.

إمضاء المخدوع في أمرهِ صالح ولد عمار.

الفصل 13
العشاء الأخير

«لذة الانتقام لا تدوم إلا لحظة،
أما الرضى الذي يوفره العفو فيدوم إلى الأبد»
مثل إسباني

الساعة السادسة مساءً لم تظهر زوجتي بعد، أعدت الكراس إلى مكانه. سمعت صوت محمد علي وياسمين.

راق لي أن أراقبهما من بعيد. كيف هما منسجمان؟ كيف يتكلمان؟ هما ما تبقى لي من أسرة. كدت أضيعهما أيضا. شكّل توجههما الأدبي منعطفا سيئا في علاقتي بهما. لماذا كنت أصر على أن أراهما كما أحب أنا وليس كما يريدان أن يكونا؟ أردت أن أصادر اختياراتهما.

كان منظر الطبيب والطبيبة هو المسيطران على رؤيتي لمستقبلهما. أردت ذلك بالقوة. دروس تقوية إجبارية في المواد العلمية. عندما أكد لي أساتذتهما بأنه لا فائدة وأنهما أحسن فيما

هما فيه. اعتبرت ذلك فشلا. مجرد ذر الرماد على العيون. صرت مختلفا كلما رأيت اعتزاز فتحية بتوجه أبنائها ونجاحهما. الذي ساهمت أنا فيه قلت: ماذا ينقص أبنائي ليكونا كما أريد؟

أ لم أوفر لهما أحسن بكثير مما وفرت لأبناء فتحية؟

أ لم يلِجَا أحسن المدارس؟ ماذا ينقص إذن؟

المقارنات التافهة وحصر النجاح في ميدان معيّن لا غير هو السبب. جعلني ذلك أبتعد كثيرا، بل صرت مُزعجا، أغضب عليهما لأتفه الأسباب. بل كنت لا أتوانى في اعتبارهما فاشلين بالمقارنة مع أبناء فتحية.

أ كنت أحسد فتحية على نجاح أبنائها؟ أ ليس لهذا دخل في موقفي الأخير منها؟ في الآونة الأخيرة لم أعد أتحمل اعتزازها بأولادها أمامي، كان ذلك يزعجني إلى أبعد حد. هي المسكينة لم تكن تملك غبر نجاح أولادها لتفتخر به، وأنا الأناني المتكبّر أملك كل شيء. ورغم ذلك استكثرت عليها هذا النجاح، هذه الفرحة. اعتبرت أولادي فاشلين وهما لا ذنب لهما، لم يرسبا ولو لعام واحد. أين هو الفشل؟ في دماغي أنا فقط في مخيلتي.

– ع السلامة.

أخذت مكاني وسطهما على الأريكة. للحظة بدا كأنهما لم يصدقا ما رأياه.

– بابا شنو المفاجأة الكبيرة هذه، كي السبة اليوم بكري. هتفت ياسمين؟

كان من المفروض أن تكون هذه هي العادة وليس الاستثناء. كان من المفروض أن يكون هذا موعد عودتي إلى المنزل كل يوم.

لكنه ظل لسنوات عدة موعد دخولي إلى الحانات والفنادق. لو كان كما يجب أن يكون لما خانت ألفة. لما صار بيتي منزل عائلتها. لوضعت حدودا كثيرة، لعرفت معنى السعادة الحقيقية. لكان وكان وكان. أخبرتهما أنني عرفت بموت صهري. وأن ذلك آلمني وصدمني كثيرا. جعلني أقف مع نفسي للحظة. أن أتساءل إلى أين أنا ذاهب؟ ماذا أريد؟

قلت لهما إنني فخور بهما كثيرا، إنني أسف على كل لحظة أحسا فيها أنني بعيد. أو أنني غير راض عن أشياء تخصهما هما. أخبرتهما أنهما أحرار في أن يكونا كما يريدان. أن يختارا حياتهما بالشكل الذي يرياه مناسبا لميولهما.

أبي لقرن مضى لم يفرض عليَ قناعاته رغم عدم رضاه. كان يكتفي بالدعاء، بالدعاء فقط. ماذا جرى لي؟ قلت لهما إنني أسف على كل لحظة ضيّعتها، كان يجب أن أكون بجانبهما ولم أكن.

– بابا أمانك متغشش خاطر أحنا بالرسمي نمشوا لدار عمتي وما قلنالكش على موت عمي حَمّة، هذا الموضوع لي قلت ليك حاجتي بيك فيه.

ومحمد علي محسوب ديما في دار عمي الطاهر. ماكناش نحبو نقولو ليك خاطر نخافو تمنعنا وأمي قالت ثمة مشاكل بيناتكم.

– وعلاش ماقلتو ليش على موت راجل عمتكم؟

– والله بابا حبينا نقولوا ليك نهار لي مات أنت ماكش هنا أما كي جيت أمي قالت اكهو الدفينة فاتت زايد وقالت لي أنت عندك برشة مشاكل من غير ما نكملو عليك تو تتصرف هي.

– من الناحية تتصرف تصرفت.

- اشنو بابا تغششت؟
- من وقتاش تمشو لدار عمتكم وعمكم بالضبط نحب نعرف؟

هنا أجاب محمد علي.

- بابا انا باش نقولك من الصيف نتاع الباك تشديت أنا وجماعة صحابي في دارنا القديمة في النصر مانعرفش شكون بلغ علينا.
- اش كنتو تعملو قلي؟
- نتكيفوا في الزطلة ونشربو ولاد وبنات.
- ياسمين معاكم؟
- اللطف اللطف عليّ بابا خاطيني خاطيني أنا الحكايات هاذو والله والله بابا.
- كمل سي شباب كمل.
- وكيف شدوني وعرفوا اسمي هزوني لواحد كرايدي اسمو سي محمد. خرجني معاه وهزني لعم الطاهر. سي محمد هذا قالي هو صاحبك وقالي من غير ما نقلك وهو ماهوش باش يقولك زادة. أما كان نعاودها ويشدني ماهوش باش يرحمني كان يطلع بابا رئيس جمهورية.

عمي وقف معايا برشة بدا يتبع فيا، هزني للطبيب باش معادش نرجع نتكيف. من وقتها الحمد لله حتى الدخان بطلتو.

- من وقتها وليت شيخ وأنا نقول شبيه تبدل وكيفاش يعطيه الصحة عمك لا محالة ديما محشمني على روحي. وأنت لالة ياسمين كيفاش احكي لي؟
- حتى شي بابا ماني نقرا في خزندار بحذا دار عمتي، النهار الأول لقيتها تستنا فيا في الباب شدت الصحيح وليت نفطر بحذاها

كل يوم، ملا تطبيب عندها با، وساعات يوصلني عمي حَمّة الله يرحمو كي ما يجينيش الشوفور، اكهو ولينا أنا ومروى وسفيان صحاب.

- صحاب اكهو؟
- بابا تو يقولك محمد علي مالا.
- هيا تفضل شيخ تكلم.
- سفيان ولد متربي برشة وناجح مهندس يخدم في فرنسا علاش لا مادام يحبو بعضهم؟ هو حاشم منك برشة يحب يكلمك ومتردد حتى عمتي باش تكلمك هي طمنتنا وطمنت لالة ياسمين.
- والله دوختوني مالا جمعة متاع دوخة بالرسمي يا خي. وين كنت أنا؟ في انا عالم فين؟ فايق ولا نحلم؟
- بابا بابا لاباس شبيك؟ هتفت ياسمين.
- لا لا بنتي ربي يسهل ويهنيك، كبرت وليت عروسة وانا مانيش ماخذ بالي، بالله أمكم في بالها بالشئ هذا الكل.
- ماما في بالها بسفيان، تغششت ماحباتش أما قالت لي أنا حرة وتصرفي مع باباك راهو ماهوش باش يوافق.
- هيا الأولاد أنا اليوم فرحان بيكم برشة وأنت شيخ ما ثمة شيء؟
- لا بابا أنا غاطس في القراية.
- بابا سفيان جاي اليوم ميسالش يجي يقابلك؟
- والله فكرة أنا كنت باش نمشي لدار عمتك علاش مايجوش الكل اليوم؟ منها يكلمني سي شباب نتاعك ومنها نتلمو أما شكون يكلم سي الطاهر أنا حاشم منو برشة.

- باهي بابا ناخذ الكرهبة ونمشي نجيب عمي وأنت خليك تسمع عزف الموسيقار ياسمين.

اتصلت بفتحية كانت متلهفة لمكالماتي. طمأنتها على أن كل شيء على ما يرام وعلى أنني على علم برغبة ابنها. اعتذرت مؤكدة أن مجيئه كان لهذا السبب بالذات. وأخبرته أن الوقت غير مناسب للكلام في هذا الموضوع.

في حين وجدتها أنا فرصة مواتية لكل البرامج التي برمجتها سأكون بذلك شبه مطمئن على ياسمين.

- فتحية خليه يجي اليوم كيما مبرمج أنا زادة توحشتو وفرحان برشة بيه ويشرفني يكون راجل بنتي.
- يا صالح خويا. ومرتك؟
- آش يهمك ف جد بوها الكلب كلمي الطاهر وأكدي عليه وقولو بالله العشاء راهو حلال.
- ياخي مثبت صالح؟
- أزربي روحك ايجا تلهاي بالعشاء وخلي سفيان ومروى يخلطو من بعد.

ناديت ياسمين طالبا منها أن تتجهز لاستقبال خطيبها.

- الكرهبة على ذمتك بري حضري روحك نحب نشوفك الليلة عروسة.
- وماما بابا ياخي مافيباهاش؟
- لاماتخافيش تو نتصرف بري بري.

إحساس آخر بالمتعة، لا تأتي الأشياء السيئة وحدها، نستطيع أن نخلق في أحلك أوقاتنا أشياء جميلة نستطيع أن نسرقها ونحن نتصارع مع الزمن ودورانه.

استلقيت على أقرب أريكة في الصالة المقابلة لباب الدخول أنتظر مجيئها. لازلت بلباس المنزل لم أنزعه بعد، لم أنزع عني أي شيء، فجأة سيطرت علي صور الفيديو وصور أسطرها الأكثر بشاعة من كل ما شاهدته.

تحب أن تتزوجه. تتقزز منه ورغم ذلك تتزوجه. لأنه عرف ما لم أعرفه أنا. مادية هي بكل المقاييس. لم تشبع بعد. ماذا ينقصها؟ تعيش في قصر، لم أكن بخيلا معها أبدا، تريد حسابا بنكيا وشقة باسمها إذن. كيف تتبدل المعطيات؟ من كان يظن أنني سأعيش هذه اللحظات، لم يدُر ذلك بخلدي أبدا. أصبحنا نمشي بقوة الدفع، نعقد العزم على شيء ونطبق أشياء أخرى.

كنت قد عقدت العزم للحظة أن أهيئ أبنائي لانفصالنا. لكن الحديث أخذ منحى آخر. انعقد لساني،، ليس بالأمر السهل كما كنت أعتقد. لا يمكن أن تخبر أولادك فجأة هكذا بدون أسباب واضحة أنك ستنفصل عن أمهما، ليس سهلا.

لا يمكن أن أنسى وجه ألفة ذلك اليوم. ذلك المساء كان العشاء الأخير الذي جمعني بها. ربما كان انتقاما دون تدبير مني أو قصد، أكثر من أي عقاب أو انتقام آخر.

دخلت منتشية، لم تكن تتصور أن تجدني في المنزل، استجمعت قواها بطريقة مصطنعة ظاهرة. أخذتها على حين غفلة بل تفننت في اللعب والعبث بمشاعرها.

- هاك هنا سي صالح على بكري.
- حبيت نعملها ليك مفاجئة.
- ياحسرة على زمان المفاجأة ولى عهدو، كبرنا الرجوع لله ماو سي صالح مش هذا كلامك؟
- لا اليوم حبيت نصغر نرجع للوراء مايسالش ليوم الدخلة نتاعنا بالظبط تذكرو ماو؟ خاطر اليوم قابلت واحد من بلادكم الدشرة نتاعكم اسمو إسكندر يا اخي تعرفيه.

امتقع لونها، تغير، لم تستطع أن تخفي ذلك. سكتت للحظة، هربت منها الكلمات، انعقد لسانها. دخلت فتحية، كأنها تلقت صفعة أخرى. لم تستفق بعد من الأولى. كم تمنيت لو تأخر دخول فتحية بعض الوقت، منحها دخولها فرصة للهروب كأنها أرادت أن تسألني. ماذا تفعل هذه هنا؟ لكنني سبقتها محملا كلامي أكبر ما أستطيع من نبرات التهكم.

- سامحني ألفة ماقلتليكش سفيان ولد فتحية تعرفيه ماو كيما كنت تعرفي بموت حمة وماقلتليش. جاي باش يخطب ياسمين وأنا عطيتو.

سكتت لم تستوعب ما هي فيه، الكلمات غير متاحة. لسانها انعقد أرادت أن تحتج أن تنفعل لكنها تراجعت، بدأت تحسب خطواتها بحذر بالغ.

- ياخي أنا مانيش أمها آخر من يعلم كيفاش تجي هاذي؟
- والله يا ألفة وماتسالليني حلوف حتى أنا ماكنش في بالي. مش بهذه بركة، ببرشة حوايج زادة. اليوم بركة اتصلت بيك ماجوبتنيش حتى عرفي كان يقول ديما ياسمين كي بنتي كيجي مكتوبها

نحبك تحضرني، رد بالك صالح، يا اخي تيلفونو مايجوابش هو زادة. ريت مالزهر طلبت مدام السيدة مرتو بالمناسبة سلمت عليك أما قالت لي راهم طلقوا وأنا ما فيباليش.

للحظة ظننت أنها ستنهار ستعترف. لونها أصبح يتغير كالحرباء لم تجد الكلمات. بل أنني أحسست بجفاف ريقها، استدارت تبحث عن منجد لم تجد إلا فتحية.

– اوه فتحية سمحني ماسلمتش عليك تفضلي الدار دارك.

– اش عملنا توا لالة ألفة موافقة؟

– البنت بنتك سي صالح وفتحيه ما يتقالش ليها لا سامحوني يا جماعة نطلع نبدل حوايجي ونجي براحتكم.

إحساس ألفة بالقهر والهزيمة أكبر من أن يُوصف. رأيت ذلك في عينيها، رأيت الرعب والخوف اللذان لم تستطع أن تسيطر عليهما.

عادت بسرعة من جناحها كمن كان يخاف أن هناك مؤامرة تحاك ضده ويريد أن يحضر تفاصيلها. ربما لم تكن تظن أنني أعني ما أقول.

أن تجد العائلة كلها في المنزل الطاهر وزوجته وبناته فتحية وأبناءها. الجو حميمي أكثر من المتوقع. كأن السنون لم تفرقنا، كأنه لقاء دوري للعائلة. عائلتي أنا هذه المرة، نعم، أبدت في احتراس شديد رغبتها في حضور أمها وأختيها لأن المناسبة تقتضي حضورهما لكن في الحقيقة كان الرعب قد أخذ منها كل مأخذ وتبحث عمن تستنجد به.

لكن فتحية كانت لها بالمرصاد، كلمة واحدة وتقوقعت.

- يزي مافرحو بيها عائلتك، اليوم دورنا لالة ألفة ومازلت الأيام جاية توا يفرحوا. وزادة هذه كلمة لا خطوبة ولا عرس، لمنا الفراق الله يجازي لي تسبب فيه، الله لا تربحوا يا رب.

لم تستطع أن تكمل السهرة معنا. بل لم تجلس حتى ساعة معتذرة بأنها تشكو صداعا رهيبا في رأسها وغادرت مسرعة إلى جناحها. عزفت ياسمين، لأول مرة أسمع عزفها. كانت تعزف لسفيان. الفرحة تملأ عينيها، علامة الود والوله بادية عليها. أسعدني ذلك كثيرا، أدخل السرور إلى قلبي المجروح، أنساني آلامي.

صفق أخي الطاهر لياسمين مقبلا جبينها. كنت أنا الضيف، كنت أنا العائد إلى أسرة متجانسة، كنت أنا العنصر الغائب وعاد من سفر طويل. محمد علي ابني كان جالسا بجانب عمه يتهامسان تارة ويضحكان أخرى حتى ليظن من يراهما سيظن جازما أنه ابنه هو.

أخي الطاهر يتسرَّب إلى القلوب بصمته، بهدوئه دون تدبير، بتصرفاته البسيطة العفوية. بترفعه عن الأخطاء، بعدم رد فعل سيء، لا يملك رد الفعل السيء. يفضل الصمت وقتها. يتسرب إلى القلوب فيملكها ويستقر فيها، يصنع فيها عشا دائما في قلوب الكل. فتحية تحبني أنا كثيرا لا شك في ذلك، ترتاح معي. أما حبها لأخي الطاهر نوع آخر لم أفهمه، يكون ممتزجا بوصفة غريبة كما قالت فتحية مرة: الطاهر يحسسني بالاطمئنان، قد لا يعطيني شيئا، قد لا يقول أي كلمة. يكتفي أحيانا بأن يجلس بجانبك بصمت، لكن هذا الصمت، هذا الحضور في حد ذاته اطمئنان، سعادة عندما يحين موعدها، عندما يأتي عيد، ويتأخر عن موعده المألوف يتسرب القلق إلى داخلك دون شعور منك، بل يتسرب الخوف. حب لا

يمكن أن يتوقف جريانه الطبيعي الذي يجري رغم اعتقاد من يراه أنه راكد. حياته يمكن أن تضبط عليها عقارب الساعة. لا يغيب أبدا في عمله إلا للضرورة القصوى. أستاذ تاريخ محبوب من تلامذته. كان في فترة محط مراقبة أمنية. عندما أعلموني بذلك توخيا للحذر. ضحكت ملئ شدقي.

– خويا الطاهر تبعوه ماكومش باش تلقاو شيء.

تتبعوه لكلمة قالها أثناء الحصة والتقطت.

– تاريخ تونس يجب أن تعاد كتابته بشكل صحيح.

كلمات كهذه مرفقة بالصلاة في وقتها وفي المسجد كانت كافية لتثير وقتها ألف شبه إلا أنا، كنت مطمئنا، لا لشيء. الطاهر كان دوما يقول بأن الجماعات المسماة بالإسلامية أساءت للإسلام والمسلمين أكثر مما نفعتهم.

الإسلام فضاء واسع لا يستطيع أحد حصره في جماعات كثيرة مختلفة تحاول خلق الاختلاف والخلاف فيما بينها. ليس حرصا على الدين. بل حرصا على التسابق والاستقطاب أكثر لأجل السلطة. وحتى الجماعات التي نجحت منهم في الوصول إلى السلطة لم تقدم شيئا جديدا للأمة، بل أعطت ألف سبب لأعداء الإسلام. كي يعمقوا من جراح المسلمين أكثر. أن تكون مسلما حقيقيا لا يتطلب الأمر تزكية من جماعة مهما كانت. يتطلب الأمر فقط أن تكون صادقا، أن تعمل بجد، وإن أخطأت تعتذر. أن تعرف أنك أخطأت، لست معصوما.

الإسلام لا يلغي إنسانياتك، لا يلغي رغباتك وشهواتك، بل يتفاعل معها، يعطيك الحلول. إن أصبت وإن أخطأت. الإسلام لا

يمنحك الحق في الوصاية على الآخرين. بل يدعوك إلى احترام آرائهم،، حتى كفرهم إن لزم الأمر. ولا يعطيك الحق في أن تحرمهم حقوقهم إن كنت مسؤولا عنها. الإسلام الآن خمسون جماعة، كل جماعة تحتكر الحق لنفسها. تحتكر الإسلام لنفسها، تلبسه جبتها وتصنع له أعلاما حتى احتار الناس أي الإسلام أصح؟ هذا أو ذاك؟ فتسرّب الشك إلى القلوب. اتركوا الإسلام للناس لا تحتكروه، لا تجعلوه ملكا لكم.

هكذا هو الطاهر، حياته لم تتبدل منذ عرفته، تغيرت شيئا ما عندما تزوج، لا لم تتغير، بل أصبحت امتدادا لحياة أبي. أب لثلاث بنات. تزوجت الأولى بزميلها في العمل حيث تعمل ممرضة. حضرت عقد قرانها فقط. كنت دائما مستعجلا وكذلك متوخيا الحذر في أن أصطدم بفتحية أختي. سلمت على العروسة أعطيتها مبلغ ألفي دينار وانصرفت. منزل عادي جميل سيارة عادية. كان يرغب في ولد ولمّا لم يرزق به اكتفى بنصيبه راضيا مطمئنا.

سألت منذ قليل محمد علي. إن كان معجبا بإحدى بنات عمه؟ استنكر ذلك أشد الاستنكار مؤكدا أنهما أخواته وأنه لم ينظر قط إليهما نظرة شهوة وأنهما أيضا يحبانه على هذا الأساس. مكبوت أنا. عقلي دائما في عضوي الذكري لم أتغير. في الصيف كما كان يفعل أبي تماما، يستأجر منزلا لشهر، لا يخرج على هذا النطاق. شواطئ مدن المعمورة قليبية أو غار الملح. قالت لي فتحية إنه أضاف مؤخرا شواطئ مدينة طبرقة إلى اللائحة.عندما كان يعمل في العطل في دكان أبي سألته مرة.

- ألا تمل من هذا التكرار المميت؟

وقتها أجابني:

- التكرار حالة كونية طبيعية فالشمس تشرق كل يوم نحن نعيش كل يوم لو لم يكون هناك تكرار لما كانت هناك حياة. ليس العيب في التكرار. العيب فينا نحن لأننا نعتقد أن الأشياء الأخرى الجديدة هي التي تعطينا السعادة. لكن العكس، السعادة هي أن تصنع في ذلك اليوم المتكرر بشمسه بمطره بهوائه شيئا جديدا أن تنظر إلى تلك الشمس كل يوم نظرة جديدة. أن تتمتع بالبحر كل يوم بأسلوب جديد.لا يكفي أن تخرج في نزهة لتكون سعيدا، يجب أن تكون النزهة في داخلك، أن تنبعث من هناك.

أحيانا تكون المتعة كافية في أن تترك كل شيء على ما هو عليه وأن تنظر فقط وتستمتع. أحيانا أخرى يجب أن تملك بصمتك الخاصة، أن تحاول بها تحويل مجرى جدول ما في حياتك، أن تُعدّله وأنت تستحضر المتعة في عملك. في العالم كله لن تجد في الأرض إلّا ما تجده هنا. شمس، هواء، بحر، رمال، ثلج، أناس يتحركون أمامك. إن كنت عاجزا عن التمتع بما هو أمامك ومتاح لك فأنت ستكون أعجز عن التمتع عما هو بعيد عنك وتبحث عنه عبثا محاولا إقناع نفسك إنك في رحلة البحث عن السعادة والمتعة.

ستسافر بعيدا وستتعب كثيرا وفي الأخير ستدرك أنك فوّتت السعادة في ابتسامة أمك التي كانت دوما بجانبك وأنت لم تلحظ ذلك.. سل المغتربين؟ ابحث عن أحوالهم وأجوبتهم ستجد أن السعادة أصبحت مقتصرة في رؤية حائط، في أكل طبق بسيط، في حضور عرس أحد الأقارب، في رائحة عيد. رائحة إنسان. في شوارع بلدهم المتسخة والتي كانوا لوقت قريب يكيلون لها من

السباب الشيء الكثير. من لم يكن سعيدا في وطنه وأهله وذويه فلا عاش السعادة ولا عرف لها طريقا أبدا.

من فشل في التواصل مع أمه، أبيه، إخوته، أعمامه، كيف سينجح في التواصل مع الآخرين؟ سيحاول عبثا، لكن مصيره الفشل إن لم يكن الدمار. أنت أخي صالح تتمتع بقدرة عجيبة ورهيبة في صنع السعادة والمرح أينما حللت، ولكنك في المقابل تتمتع بقدرة أعجب في تدميرها بالسرعة نفسها التي صنعتها. أتعلم ذلك؟

الآن فقط عرفت ذلك أخي الآن فقط.

أغبطه أخي الطاهر من كل قلبي ولا يجب إلا أن أغبطه. يجب أن يتوقف الأمر هنا ولا يتحول إلى حسد. نعم، عندما رأيته منسجما مع ابني غبطته. استطاع أن ينتزع منه ما لم أحاول فعله، انتزع صداقته، ضحكته، انسيابه في الحديث دون خوف أو عقد.

نعم ستجد أمثال أخي في كل عائلة، هم من يخلق التوازن ونحن من يخلق الفرحة والفوضى أيضا. تكون مصاحبة بالمتعة، لا أنكر ذلك، لكنها تبقى فوضى تحتاج إلى من يقلمها، من يعطيها بعدها الجميل غير المدمر. لماذا لم أمتلك القدرة على رؤية الأمور كما أراها اليوم؟ لماذا كنت أعتقد كل ما قلته الآن تفاهة، تخلف؟ لماذا لم أستيقظ عندما حاول الكل –من لا يمكن أن أشك في حبهم لي إيقاظي– أبي وأنا شاب لم يكن يملك غير الدعاء وهو يراني أتطلع إلى فوق. للحظة انسلخت عن عالمي، أصدقائي، كل شيء حتى عائلتي. كنت أجد حرجا كبيرا أن أقول أمام أصدقائي الجدد إن أبي «عطار»، لم أساعده يوما في الدكان الذي ربانا من ريعه. بل كنت أتحاشى الدخول إليه. أخي الطاهر كان دائما يحاول توجيهي،

تعديل مساري، لكنني صدمته بكل قوة. أختي كانت أول من غار على شرفي لم أصدقها. لماذا؟

اختليت بأخي الطاهر في مكتبي. جلسنا على أريكتين متقابلتين، كان لقاءً متأخرا جدا عن موعده. كان الأجدر أن يتم منذ زمن بعيد، شكرته على كل ما قام به من رعاية تجاه ابني محمد علي. كالعادة اعتبر كل ذلك واجبا وأننا أسرة واحدة. سردت له بالتفصيل ما حدث مع ألفة، خيانتها. كيف كبّلت يدي. لا أستطيع أن أفعل أي شيء. خوفا على سمعة أبنائي. هناك إحساس داخلي يعصرني، يجعلني أحس بأنني جبان نذل. لم أستطع أن أغسل شرفي، ربما خوفا من رئيسي في العمل، ربما لأشياء أخرى. ظل يستمع، لم يقاطعني.

أرى في وجهه علامات الاهتمام الشديد والاستنكار أحيانا. في الأخير أخبرته بماذا نويت أن أفعل. إنني أريد أن أتطهر من كل ما يلاحقني من عار. وباعتبار العار منظومة متكاملة لا تتجزأ. أن تأكل ما ليس لك عار، أن تستغل نفوذك وتقبل رشاوي مغلفة بالهدايا عار. أن... أن... أن... قلت له إنني أعرف مصيري وأعرف ما ينتظرني. إما الموت أو السجن. حياتي لا معنى لها البتة الآن. ماذا سأفعل؟ كيف سأواجه الناس؟ كل أصدقائي يعرفون أن زوجتي تخونني، وغدا كلهم سيعرفون أنها تزوجت بمن كانت تخونني معه. أليس الأفضل أن أموت أو أُسجن؟ إذن عليَ وعلى أعدائي. لن أدع ذلك القرد يسعد بتدمير أسرتي. سأجعله يتعفن هو ومن يحمونه في السجن.

لست أدري؟ هل أخي الطاهر لم يأخذ يومها كلامي محمل الجد؟ أم ماذا؟ بعد ذلك بسنين اعترف لي بأنه كان يظن وقتها أن ما قلته مجرد هذيان رجل مجروح بخيانة زوجته. يقول أشياء كثيرة ليطبق منها النزر القليل، لكن الشيء الذي أثلج صدره كما قال هو يومها. أن دعوات أبي لم ولن تذهب هدر. لا يمكن لأكف شيخ مثل أبي أن ترفع إلى السماء هكذا في كل الأوقات والأماكن، مستحيل ألا يكون لها معنى. ألا تُستجاب.

– الله يهديك يا وليدي صالح ويبعد عليك ولاد الحرام.

كنت متأكدا من عودتك وأنك ستنسلخ من عالمك تماما لشيء واحد، لأنني كنت متأكدا أن دعوات أبي ستتجسد.

كل ما شجعني عليه وقتها الإسراع في أقرب وقت بتطليقها.

– لا يجب أن تبقى على ذمتك بعد اليوم، صالح اليوم، وليس غدا.

وبطريقة سلسة كما قررت أنت إكراما لأبنائك لا تجعل صورة أمهم تهتز في أعينهم، ستجد ما تقوله، ستجد شيئا ما أكيد. مبديا تعاونه وأنه يعتبر محمد علي ابنه الذي لم ينجبه. سعيد وفخور جدا به ويتنبأ له بمستقبل زاهر في الصحافة والكتابة مبديا استغرابه كيف أنني لم أقرأ ما ينشره في عدة جرائد إلكترونية.

لأول مرة منذ كنت طالبا تطول جلستي وحواري مع الطاهر. لم يتغير ما زال كما هو، مستمعا جيدا وهذا يكفي في أغلب الأوقات. كنت أحتاج من أتعرى أمامهم دون خجل. من أبث إليهم بهمومي مثل هذه الهموم. لا يمكن أن تحكيها، تسردها في المقاهي والحانات لأي أحد في لحظات كهذه. يدرك فقط من ليس لهم إخوة كما لي أنهم سينفجرون بما في داخلهم من آلام.

تلك التي تجد اللذة في الخروج ككلمات لشخص تحبه وتثق فيه، تخرج لتمنحك أنت السلام، تمنح لجروحك ضمادات خاصة من نوع آخر. عندما جُرحت وطُعنت في شرفي أسرعت إلى فتحية أختي رغم جفائي لها، وجدت حضنها مفتوحا، وجدت صدرها يحتضنني، بل وجدتهما قد قاما بما لم أقم به لأبنائي. وجدت أخي الطاهر هابا مستمعا بكل حنان أبوي لمشاكلي، مقدما لي النصح لا شامتا. تحسه يشاركك آلامك، يحس بها، وهذا وحده فقط يبعث في النفس الأمان والاطمئنان.

عدنا إلى الصالة الكبيرة، فتحية منسجمة بشكل كلي مع زوجة الطاهر، علاقة امتدت أكثر من نصف قرن كجيران لعبا مع بعض في الشارع والآن هما كما هما لم يتبدلا راعني منظرهما كأنني أراهما لأول مرة. بعد ذلك طلب مني سفيان يد ياسمين معتذرا عن عدم وجود خالته ألفة. لعنتها في سري وتمنيت لو ماتت لو لم تكن موجودة أبدا. خجول للغاية كان سفيان.

باركت له طالبا منه أن تكون ياسمين أمانة في عنقه. لا مانع عندي أن تسافر معه حيث يعيش. لم أستطع وقتها السيطرة على مشاعري اختلطت في ذهني كل الصور، ذاكرتي اللعينة أتحفتني بوجه أمي حزينا دامعا وهي تطلب مني أن أخطب في صمت قاتل بنت الجيران.

تحديتها متوهما أنني أعيش حالة حب. ما هو الحب؟ لا نعرف ما هو الحب؟ عندما تتضح المفاهيم بفعل الزمن الذي يسلط عوامل تعرية من نوع آخر. ليعرّي كما يعرّي الصخور. كل المفاهيم يظهرها على حقيقتها. حقيقة هي أم مزورة. يصدمنا بها. ممَّ استمدت أمي

فراستها في ألفة؟ لماذا كان كل ما قالته صحيحا؟ ومطابقا للواقع؟ لماذا برهنت الأيام على صدق كلامها؟ أي حكمة كانت تملكها؟ لم تشك قط فيما اعتقدته. كان إيمانا راسخا بأنني أرتبط بالشخص الغلط. ليس لأنني الأفضل لا، بل لأنها لا تناسبني.

– خوذ بنت الأصول لعل الزمان يطول.

قد طال يا أمي وأفرز خيانة مقززة قذرة.

ياسمين بنتي الآن تعيش الفرحة، تعيشها بحلاوتها كاملة. قبلت يدي ورأسي.

– شكرا با شكرا با نحبك برشة.

كلمات ولا أروع ما أجمل اللحظة. لو كانت نقية صافية لا تشوبها رائحة القذارة المنبعثة من داخلي، سيطرت عليَ اللعينة بكل بشاعتها،، بصورها، بكلماتها، بأسطرهار تطاردني تقول لي. أنت جبان، تتهرب بإقامة حفلة وهمية لتهرب من عارك. أنت جبان. أما كان الأجدر بك أن تغسل عارك كما يغسله الرجال؟ إنها فوق تشكو صداعا وهميا بينما أنت تشكو صداعا حقيقيا. إنها فوق تخونك في كل لحظة، لم تعد تهمها حياتك، أفراحك.

محمد علي الوحيد الذي انتبه إلى ما أنا فيه. كان يملك إحساسا أكثر من الآخرين، أدرك ربما بحسه الصحفي أن الأمر لا يمكن أن يكون هكذا فجأة دون سبب. أن الأمر لا يمكن أن يكون لقاءً عائليا بعد قطيعة طويلة تتخلله خطبة. انتظر مغادرة الكل. أوت ياسمين إلى فراشها تحمل معها أحلامها وفرحتها.

اقتحم عليَ محمد علي خلوتي، حيرتي.

- بابا أنا حاسس بحاجة موش نورمال، أمي طلعت ورأسها موش يوجع فيها كيما قالت.ثمة حاجة بابا؟
- اسمع ولدي انا باش نقلك أنت راجل تبارك الله أنا وأمك ظاهرلي باش نتفارقوا ومن غير ما تسألني على التفاصيل يعيش ولدي.

نظر إليَ غير مصدّق كأنني صفعته.

- ما نيش باش نطلق أمك بركا باش نقدم استقالتي من الخدمة وممكن...
- بابا بابا

عانقني وهو يبكي كطفل صغير، بكيت لبكائه طالبا منه ومن أخته أن يسامحاني. لأنني كنت أنانيا أكثر من اللازم، لم أفكر لا في بلادي ولا في أبنائي ولا في أسرتي.

من يملكون قلوبا كالتي نملكها لا يمكن أن يمتلكوا الحب، إننا ندمر كل شيء جميل في هذه البلاد، نمتلك قصورا ولا نملك الإحساس بالتمتع بجمال نبتة وهي تنمو، لم نتوقف لحظة، قلوبنا أكلها الصدأ. عندما بدأنا رحلة العمل بدأناها بقسم. كنا نقسم ونحن متأكدون أننا نخون القسم قبل أن نبدأ.

كانت ليلة طويلة بكل ما تملك الكلمة من معنى، خرج محمد علي، لست أدري كم مرّ من الوقت وأنا حائر. رفعت رأسي وجدتها أمامي في المكتب، كانت أقوى مني في كل شيء، تمتلك قوة إرادة تصل في أحيان كثيرة إلى حد الوقاحة، تعرف ماذا تريد ومتى تريد.

- إن شاء الله لاباس ديما ملمومين في الخير صالح.
- راسك لاباس معادش يوجعك؟
- اسمع صالح من غير ما نطولوها وهي قصيرة، أنا نحب نطلق.

هكذا بدون مقدمات. تقتحم عليَ حياتي في البداية ترابط تحت شجرة الليمون بشعرها الطويل تمثّل، تتظاهر بتعلم «الطريزة» لتقول إنها تحبني بل أحبتني من أول نظرة والآن تقتحم عليَ مكتبي لتقول إنها تريد أن تضع حدا لهذا الزواج، لعبة أنا بيديها لا أكثر ولا اقل.

– علاش؟

– هكاك.

– اسمع ألفة ماثماش حاجة هكاك، كيما قلت أول ما ريتني قلت هذا باش يكون راجلي يعني مُخطط، وتوا قلت هذا باش نطلقوا، شنو المخطط الجديد ولا أنا غالط.

امتقع لونها صار مزيجا من الألوان. استمتعت بتعذيبها، أنتقل من ذكرى إلى أخرى، أسقطت عليها قيء ذاكرتي. نقلت إليها بعضا من صورها بشكل غير مباشر. كل مرة تهم بالانصراف أستبقيها لأذكرها، لأطربها. اليوم أنا من يتحكم باللعبة لست أنت، حبيبتي تلاعبت بها كما يتلاعب القط بالفأر قبل أن يجهز عليه.

– توا الليل موخر لالة الفة فكري برشة بالكشي يطلع ليك مخطط جديد عندي فيه بلاصة.

أرادت أن تتكلم أوقفتها بإشارة مني. لترتفع حدة صوتي، لم أعد قادرا على السيطرة على نفسي. وقفت قبالتها مباشرة كما وقفت يوم القبلة الأولى. يومها نقشت المتعة في ذاكرتك. اليوم أيتها الفاجرة سأنقش شيئا آخر لن يشفي غليلي أبدا.

انهلت عليها صفعا وركلا، أدميت وجهها. بدأ الدم يتسرب حارا يُلامس أكفي يعطيها لونا أحمر. لون شرفها الكاذب. لم تقاوم، لم تصرخ. عقلها، وعْيُها ظل يعمل حتى وهي تتلقى الضربات، لم تشأ

أن يستمع الأولاد لصراخها ليقينها التام بأن لعبة خيانتها انكشفت. استسلمت اليوم للضرب والإهانة كما استسلمت أمس لأول قبلة، أول لمسة، كيف تنقلب الأدوار، كيف انقلب الاحتكاك من احتكاك متعة إلى احتكاك عذاب. سقطت مغشيا عليها، منظرها والدماء تغطي جزءًا من وجهها لم يشعرني بالرأفة بل بالاشمئزاز، تمنيت قتلها.

- بوك الكلب، لعبة هي، وقت تحب تطلق تطلق وقت لي تحب تعرس تعرس. أنا نحكم، أنا ناخذ القرار، كلبة بري اخرجي عليّ.
- تضرب فيَ صالح؟ والله لاقعدت نهار معاك لازدتو بحذاك توا تشوف.

خرجت وهي تجر أذيال الخوف والرعب. قمت بتشويش الاتصالات على المنزل الواردة والخارجة. سأعذبها الليلة، لن تتمكن حتى من أن تشكو إليه ولا إلى أي أحد. سأجعلها تتذوق حيرتي، آلامي، إحساسي بالذل والمهانة. أعطيت أوامر صارمة للحراس. لا أحد يخرج من هنا أبدا وخصوصا هي. إلا بأمر مني أنا فقط.

استمتعت وأنا أشاهدها عبر الكاميرا وهي تحاول الاتصال دون جدوى. عاودت عشرات المرات، جربت كل الوسائل، هاتف جوال وقار، حاسوب. لاشيء، رمت بهاتفها على الحائط وانخرطت في بكاء هستيري. راقبتها خوفا من أن تلجأ إلى كراسها وتوقظ أحد الأولاد. لكنها لم تفعل وحسنا فعلت، كان يمكن أن أفقد أعصابي لو وجدت نفسي في موقف المواجهة معهم، لو اضطررت أن أفسر

سبب ضربي لها، لن يكون هناك مبرر أكثر من خيانتها. نعم هي تستحق ذلك وأكثر.

استيقظت مبكرا أو أنني لم أنم ليلتها، غفوت فقط للحظة أو لحظات متفرقة لم تتجاوز كلها ساعة زمنية. لم أغادر مكتبي، غفوت على الأريكة وأنا أتابع الكاميرا عبر تلفاز المكتب. إلى أن نامت، تركتها تغط في نوم عميق.

ألغيت التشويش وألغيت أوامري للحراس. للحظة أحسست بتأنيب الضمير على ضربها. اتجهت مباشرة إلى الوزارة. اليوم سأبدأ. أعدت الضابط الذي أخبرني بخيانة ألفة من المهمة التي كلفته بها بغاية إبعاده. هكذا كافئته على كلمات رسالته المصحوبة للملف الأسود لازالت محفورة في ذهني.

- ترددت كثيرا سيدي قبل أن أقدم لكم هذا الملف لما يحتويه وخصوصا بعد أن عرفت أنها زوجتكم وأنها مع من تعرف. ترددت لكن الواجب الذي يمليه عليَ ضميري وعملي كانا أقوى من ترددي. أنا حقا آسف جدا لكن يجب أن تعرف آسف.

أعدته من مهمة المنفى ووضعته حيث يستحق أن يكون. قمت بتحميل جميع الملفات التي أعرف أنها ستُساعد في استئصال ما يمكن استئصاله من فساد. ملفات لفيلم اسمه الفساد ألعب فيه دورا ثانويا مع مجموعة من الأبطال المشهورين.

أصبحت الخطة واضحة المعالم في ذهني، يجب أن تصل هذه الملفات إلى يد كل رجل شريف في هذه البلاد وهم كثر. إن خاف أحدهم وجد الآخر الشجاعة في نفسه للقيام بواجبه، وضعت خطتي المنقسمة إلى ثلاث مراحل.

- أن تصل الملفات عن طريق البريد الإلكتروني لكل رجل شريف في القضاء.
- أن تصل الملفات إلى أكبر عدد ممكن من الناس والفاعلين في المجتمع، سياسيين إعلاميين، مفكرين إلى غير ذلك.
- مرحلة اللاعودة، أن أقدم نفسي وأدلي بشهاداتي أمام القضاء.

أعرف الآن أنني أمشي على حافة الهاوية، على شفا حفرة من الموت. أي شك، أي تصرف خاطئ يعني رصاصة في الرأس، حادثة سير مفتعلة، شيء من هذا القبيل. ربما لن تستطيع أن تتصوره.

هؤلاء حريصون كل الحرص على مصالحهم، يحمونها بطريقة لا تخطر على بال. شبكة عنكبوتية، عيون في كل مكان. تشمل كل فعاليات المجتمع في كل نقطة، في كل مكان، تجد هناك من يخدمهم ربما متدثرا في أكبر غطاء الوطنية والشرف. بحكم عملي أعرف الكثير منهم، لكن لا يمكن بحال من الأحوال أن أعرفهم كلهم، هم أكثر من أن تحصيهم فكيف أن تعرفه!

رفعت رأسي وجدته أمامي. ينظر إليَ بكل حقد، تملكني الرعب للحظة، ظننت أن أمري انكشف، شككت في كل شيء، في نفسي، في أحلامي، في مكتبي، ربما كان مراقبا وأنا أتكلم مع الطاهر أخي، كل السيناريوهات المفزعة دارت لحظتها في رأسي بسرعة أسرع من الضوء.

- صباح الخير سي صالح هاك على بكري وغاطس في الخدمة.
- صباح الخير عرفي موش الخدمة لي جابتني بكري مشاكل في الدار عرفي، مشاكل لا كانت لاعلى البال ولا الخاطر.

بدا الاهتمام ظاهرا على وجهه وبدا الشك يتسرب إلى داخله، انتقل فزعي إليه بسرعة البرق، انعكست اللعبة الآن هو من يظن أن أمره انكشف.

أكيد اتصلت به حبيبة القلب، مجيئه مبكرا هذا لا مبرر له إلا اتصالها به. نظرات الحقد التي أمطرني بها التي تنمّ عن رغبة في الانتقام تؤكد ذلك. صبرا عليَ أيها القرد اللعين صبرا. بعث فزعه في نفسي الطمأنينة مما كنت خائفا منه. أنا من جهتي كنت متعمدا أن أقول ما قلته لأجيب بطريقة عن قلقه عن حيرته.

– والله عرفي جابك ربي، مالقيتش مع شكون نحكي، راسي باش يترشق.

اطمئن وقتها، نعم اطمئن، تجاوز مرحلة الخطر، لم ينكشف أمره، هكذا اعتقد، بل هكذا جعلته يعتقد.

– لا يا راجل إحنا إخوة هيا معايا نشربو كاس قهوة واحكي لي فرغ قلبك.

– والله عرفي حاجتي لشكون نحكي أما ما نحبش نثقل عليك بمشاكلي.

– إحنا عشرة يا صالح شبيك يا راجل ولا نسيت هيا هيا.

نعم نحن نتدثر بالإخوة. في حين لا نعدو أن نكون إلا ذئاب ضالة تنهش لحم من يعترض طريقها وإن لم نجد أحدا ننهش بعضنا البعض. إخوة نحن بحق. كيف نتجرأ أن نكذب على أنفسنا؟ الكارثة أننا في لحظات كثيرة نصدق ذلك.

– جلسنا في مكتبه، أمر بإحضار فطور الصباح مع القهوة، استلقيت على أريكتي. أشعلت سيجارتي، بدأ ينظر إليَ فاقدا صبره،

ينتظر أن أتكلم وأنا أتلذذ بانتظاره، بعذابه، تناسيت الأمر للحظة كأننا هنا لمناقشة أمر ما. كانت آلاف الصور تغزو ذاكرتي تحفز غضبي. تأمرني أن أفجر رأسه، أن اقتله أن أُسقيه السم الزعاف. بِتُّ أكثر إصرارا على ما نويت فعله. بدأت أتخيل منظره وهو خارج جبروته، خارج مملكته، لا يستطيع أن يأمر فيطاع، تصورته في السجن. نعم هذا هو مكانه. تصورتها هي بعده ماذا ستفعل مطلقة، منهارة لا زوج ولا حبيب، ستفقد كل شيء في لحظة، ليست خططك ألفة من ستنجح هذه المرة، خططي أنا. لم يطق صبرا.

– وحّد الله خير سي صالح قلقتني شبيك سارح وحّد الله وحّد الله.

– لا إله إلا الله. لا إله إلا الله. قلتها هذه المرة ليس كنوع من العادة، قلتها وأنا أستشعرها، أستشعر عظمتها، ديمومتها، وفناءنا نحن البشر.

– اش باش نقلك سي ..... شي ما يتصدقش ألفة تحب تطلق.

رصاصة الرحمة. سكت للحظة، بدت على ملامحه الفرحة، لم يستطع أن يخفي ذلك. أو لمعرفتي برغبته. تصورت أنا ذلك، لا يهم. انعقد لسانه، لم يجد ما يقوله، ما يواسني به، أردفت أنا أستفزه.

– ريت سي ..... «القرد في داخلي» ماكنتش نتصور أن في يوم من الأيام ألفة باش تطلب الطلب هذا أبدا، هي تبدلت الأعوام الأخيرة أما توصل الأمور للطلاق لا لا.

أراقبه، أراقب ردة فعله، لعبة نلعبها. سكت برهة ليعطيني موعظة هو بطلها باعتباري ذكرته بنفسه منذ عام مضى عندما تطلق من زوجته. لأنه لا ولن يرضى أن يعيش مع امرأة لا تسعده ولا ترغب في ذلك.

الكلب يحرضني على طلاقها.

- باش تنصحني سي .....؟

- اسمع سي صالح أنت تبارك الله عليك ماكش خصيص ومرغوب فيك الشي هذا نعرفوه الكل، ألف وحدة تتمناك.

الكلب الحقير، لم يستطع أن يُخفي مشاعره، كل ما تعلمه في خمس وعشرين سنة لم ينفعه. انهار أمام حبه لألفة، إنه يحبها، كل كلمة، كل تصرف. ونحن نتكلم عليها يؤيد ذلك، كأنه يقول لي أرجوك طلقها فأنا أحتاجها. نعم ستتزوج أيها الحقير، لكن في السجن، أيام سطوتك توشك أن تنتهي صبرا صبرا.

- يعطيك الصحة عرفي والله ارتحت كي حكيت معاك يلزمني شوية وقت نرتح فيها راسي باش نأخذ خمسة عشر يوم عطلة، وبعد ذلك يكون كل شيء على ما يرام هي من طريق وأنا من أخرى.

- أحسن ما تعمل سي صالح امشي ارتاح على روحك حتى شهر كان تحب. ومتنساش كان تحب تبدل الجو كملحق في قنصلية ولا سفارة مايسالش وراقك تتعمل في سرعة البرق إحنا عشرة صالح.

- يعطيك الصحة على الفكرة عرفي نخمم فيها ونقولك توا نخليك، نمشي نكمل الخدمة نتاع اليوم ونمشي ربي معاك.

يريد أن يبعدني بشكل كامل. أيام عملنا معا انتهت بشكل من الأشكال. لم يعد لي مكان هنا، رضيت أم لم أرض. وبكل وقاحة يريد أن يضفي على ذلك طابع المِنَّة والفضل. كلب حقير. أمري قد حُسم منذ مدة على ما أظن، تريد أيها الحقير أن تتخلص مني

أن تركنني في سفارة أو قنصلية في أدغال إفريقيا. يريدني بعيدا، لن يتحمل أن ينظر في وجهي. أصبح صاحب حق. هزلت كيف تتبدل المفاهيم هكذا، سأريكم، سأحرق هذه الخيمة الحريرية على رؤوسكم حمقى...

خرجت من مكتبي الساعة الحادية عشر صباحا. كنت أعرف أن هذا آخر يوم لي فيه بكل الأحوال. أقدمت على ما أقدمت أو لم أفعل. أجريت اتصالاتي، صدق ظني، الكلب الحقير كان يُخطط منذ مدة لإبعادي عن الوزارة لنفيي. تحدّد مصيري يوم حادثة واد الليل، دفاعي عن الكولونيل محمد ووصفي لقتل الرضيع بالجريمة التقط بسرعة كبيرة ليستخدم ضدي. من سيسبق الآخر الآن؟ هناك مكان يسعنا جميعا مديري. اتضحت الخطة في ذهني، أصبحت واضحة كالشمس.. لائحتان من الأسماء لأناس شرفاء أعددتها. الآن سأستمتع بأحسن عطلة مع أولادي، سنزور أكبر عدد ممكن من الدول. سنسافر مع سفيان إلى فرنسا، سأحاول أن أعوضهم عن عدم وجودي معهم لسنوات مضت. اتصلت من سيارتي وأنا في طريقي إلى منزل فتحية بالمحامي طالبا منه الإسراع في تقديم طلب طلاق بالتراضي من ألفة. أن يعطيها ما تريد. الطلاق أهم من كل شيء. اتصلت بها.

- الو ألفة صباح الخير.
- صباح الخير صالح.
- ألفة أنت طالق طالق طالق نتمنى يريحك هذا بري للمحامي من توا كان تحبي. وأقفلت. بدا لي كأنني سمعت صوت بكاء، شيء من هذا القبيل. أكدته بعد ذلك ابنتي ياسمين، أكدت انهيارها،

صراخها. طالبة مني أن أفسر لها لأنها لم تفهم شيئا من أمها. احتضنتها مسحت دموعها وانطلقنا.

اليوم الأخير من العطلة رغم أنني كنت أستطيع أن أفعل ذلك من خارج الوطن. لكنني لم أفعل. اليوم الأخير من العطلة. في منتصف الليل ستكون الملفات موزعة بنقرة واحدة على الحاسوب. إلى كل من يهمه الأمر. ستكون متاحة لكل القنوات الفضائية الأجنبية والوطنية. لا مجال للتراجع، عاصفة ليلية. مظاهرة أكثر من مليونية، لن يسمع فيها صوت ارحل، لا مجال، لا فرصة للرحيل. نحتاج كلمة أخرى: المحاسبة، المحاسبة. ليلتها لن أنام في منزلي، سأكون أول من يقدم نفسه معترفا بكل شيء. سأكون أول من توضع الأصفاد في يديه، عشرة أيام فقط وتبدأ ثورة أخرى، ثورة جديدة، ثورة ضمير. من يدري؟ لعل المئات من الناس أمثالي ينتظرون الفرصة ليتغلبوا على التردد، على الخوف من أجل غد أفضل، غد جميل تكون فيه الأخطاء والتجاوزات أقل بكثير مما هي عليه الآن. أن تكون أخطاء فقط وليس فسادا. يكون الإخلاص في العمل هو المسيطر يكون ويكون ويكون فهل سيكون؟

انتهت ولم تبدأ بعد. فهل ستبدأ؟

يتبع في الجزء الثاني إن شاء الله

الفهرس

الفصل 1 : الخيانة 7
الفصل2 : الرحم المقطوع 31
الفصل3 : الفخ اللذيذ 41
الفصل4 : الحُلم الرضيع المقتول 55
الفصل5 : ذاكرة الرحم المَوصُول..... 81
الفصل6 : بيت العنكبوت..... 105
الفصل7 : القلب المهجور..... 111
الفصل8 : النزوح المر 121
الفصل9: القُبلة الدواء 135
الفصل10 : رهان امرأة 143
الفصل11 : عدوى الخيانة..... 163
الفصل12 : الحصاد المُرْ 183
الفصل 31: العشاء الأخير 171